تربية النفس

فتحي عيساوي





إلى كل الإخوة والأحباب

أنا الفقير إلى رب البريات	أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي	والخير إن يأتنا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة	ولا عن النفس لي دفع المضرات
وليس لي دونه مولى يدبرني	ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي
إلا بإذن من الرحمن خالقنا	إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات
ولست أملك شيئا دونه أبدا	ولا شريك أنا في بعض ذرات
ولا ظهير له كي يستعين به	كما يكون لأرباب الولايات
والفقر لي وصف ذات لازم أبدا	كما الغنى أبدا وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم	وكلهم عنده عبد له آتي
فمن بغى مطلبا من غير خالقه	فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي
والحمد لله ملء الكون أجمعه	ما كان منه وما من بعد قد يأتي





بسم الله الرحمن الرحيم

{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}

الْحَمد لله الَّذِي عرف أهل صفوته عُيُوب أنفسهم، وَأكْرمهمْ بمطالعة عذرها، وبصرهم بمساوئها، وجعلهم أهل الْيَقَظَة والانتباه لموارد الْأَحْوَال عَلَيْهِم، وأنزلهم منازل الفكر والبصيرة، وأيدهم بالعزم والجد، ووفقهم لمداواة عيوب النفس ومكامن شرورها بأدوية تخفى إِلَّا على من وفقه الله وجعله من أهل الله وخاصته، وَبعد:

فهَذِه فُصُول يدين بها الكيس نفسه، ويستيقظ بها الغافل من غفلته، ويتبين بها الراشد – بركتها، وَهُوَ حسبنا وَنعم الْوَكِيل، وَالصَّلَاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى وَآله وَصَحبه الأكرمين.

قَالَ الله تَعَالَى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ} [يوسف: 53]، وَقَال تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: 37 – 41]، وقال تعالى: {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ} [الأعراف: 176]، وقال تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: 28]، وقال تعالى: {فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه: 16]، وَقَالَ: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان: 43]، وقال تعال: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [القصص: 50]، وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ} [الجاثية: 23]؛ وَغير هَذَا من الْآيَات الكريمات مَا يدل على شرور النَّفس وَقلة رغبتها فِي الْخَيْر، واتباع العبد هواه من غير هدى من الله سبحانه.





لذا كان لزاما على من له عقل ودين أن يحاسب نفسه، ولا يترك لها الحبل على الغارب، ولا يسترسل معها، ولا يتبع هواها، ولا يستجيب لأمرها، فإنها أمارة بالسوء كما وصفها خالقها، وهي لا محالة تسعى في عطب صاحبها، وتروم هلاكه، وتبغي تعاسته، فما أغبن من سجنته نفسه وكبلته شهواته؛ حين يحال بينه وبين الرجعة، ويقفل عليه في كهف الندامة والحسرة.





محاسبة النفس:

حري بكل عاقل ديّن أن يفكر في كل فعل يريده، وأن يكون له فكرتين؛ فكرة قبل أن يقوم بالفعل؛ فيتساءل: ما المحرك له وما الغاية منه، وفكرة في ما بعد الفعل لو فعل؛ ما هي النتائج، وما هو الخير الحاصل والشر الناتج، ثم يوازن؛ ليقدم أو يحجم، وهذا ما يميز العاقل من غير العاقل، وهو أمر لازم لمن أراد سعادة نفسه وفلاحها بلا عطب ولا خسران؛ ولهذا كانت محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده؛ وإليك تفصيل هذه الجملة.

محاسبة النفس قبل العمل:

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه، ويتيقن أن فعله أفضل من عدمه، قال الحسن رحمه الله تعالى: "رحم الله عبدا وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر".

وشرح هذا بعض أهل العلم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال، وهم به العبد، وقف أولا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع، فإن لم يكن مقدورا أحجم و لم يقدم عليه، وإن كان مقدورا وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه أو تركه خير له من فعله، فإن كان الثاني تركه و لم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز و جل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق وإظهار النفس وحب العلو، فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى به إلى مطلوبه ومبتغاه، لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف ويسهل عليها العمل لغير الله تعالى، فبقدر ما يخف ويسهل عليها ذلك يثقل ويصعب عليها العمل لله سبحانه، حتى يصير أثقل شيء عليها وأصعبه، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو معان عليه وهل له أعوان يساعدونه وينصرونه إن كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا، فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبي صلى الله عليه وسلم عن الجهاد بمكة، حتى صار له شوكة وأنصار؛ وقوة وأعوان، وإن وجده معانا عليه وله أنصار وأعوان فليقدم عليه فإنه منصور بإذن الله تعالى، ولا يفوت بلوغ الهدف والنجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح أبدا وهو مدرك مراده لا محال، فيحقق أهدافه المرجوة من نشر الخير وعمومه ودحض الشر ودحوره





والفوز برضوان الله تعالى، ومن ثم الثناء الحسن وبقائه والقبول في الأرض ومحبة الخلق له، هذا في العاجل، أما في الآخرة فالمثوى جنة عرضها السماوات والأرض والنظر إلى وجه الله الكريم.

فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل؛ فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورا له، ولا كل ما يكون مقدورا له يكون فعله خيرا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرا له من تركه يفعله لله وحده، ولا كل ما يفعله لله وحده يكون معانا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه وما يحجم عنه، ويكون بإذن الله تعالى مؤيدا مأجورا في إقدامه وإحجامه.

محاسبة النفس بعد العمل:

وأما النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل؛ وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي ويرتضيه ربنا سبحانه، وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور؛ وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه؛ وهو أن تأتي بالطاعة كأنك ترى الله ينظر إليك فإن لم تكن تراه فهو يراك، وشهود منة الله تعالى عليك، وشهود تقصيرك فيه بعد ذلك كله، وأن الله تعالى يستحق أعظم وأكمل.

فلابد للعبد أن يحاسب نفسه: هل وفى هذه المقامات حقها، وهل أتى بها في هذه الطاعة أم لا، وأن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرا له من فعله، وأن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لم فعله، ومن أجل من فعله، وهل أراد به وجه الله تعالى والدار الآخرة فيكون سعيدا رابحا، أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به ويكون شقيا تعيسا.

والعاقل من حاسب نفسه ونظر إلى العواقب، والمغبون من أخر وسوف، ولبس ثوب الإهمال وترك المحاسبة وركب الاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور: يغمض عينيه عن العواقب، ويمشى الحال، ويقتل الوقت ولا يدري أنه يقتل نفسه، ويتكل على العفو وسعة الرحمة والغفران، وأن رحمته سبقت غضبه سبحانه، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب،





واستصغرها، وأنس بها، وألفها واعتادها، فعسر عليه فطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد، والوقاية خير من العلاج.

وجماع ذلك : أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض، فإن تذكر فيها نقصا تداركه، إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركه بالتوبة والعمل الصالح والاستغفار والحسنات الماحية، ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت إليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه أو نظرت إليه عيناه: ماذا أرادت بهذا، ولمن فعلته، وعلى أي وجه فعلته، ويعلم أنه لابد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان: ديوان لمن فعلته، وكيف فعلته، فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، قال تعالى: {فَوَرَبِّكَ لَنسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الحجر : 92 ، 93]، وقال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} [الأعراف : 6 ، 7]، وقال تعالى: {لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ} [الأحزاب : 8]، فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين.

فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم، فيسأل الله تعالى الرسل عن التبليغ، ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل، ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65]، قال قتادة : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون، وماذا أجبتم المرسلين، فيسأل عن المعبود وعن العبادة.

وقال تعالى: {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} [التكاثر : 8]، قال محمد بن جرير: يقول الله تعالى: ثم ليسألنكم الله عز و جل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه، ومن أين وصلتم إليه، وفيم أصبتموه، وماذا عملتم به، وقال قتادة: إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه، والنعيم المسئول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه فيسأل عن مستخرجه ومصرفه.

فإذا كان العبد مسئولا ومحاسبا على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه ولسانه، كما قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ



مَسْئُولًا} [الإسراء : 36]، وكما في الحديث الصحيح عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير قلت: بلى يا رسول الله، قال: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله، قلت :بلى يا رسول الله، قال: كف عليك هذا، وأشار إلى لسانه، قلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، فقال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم.

فمن علم هذا وأيقن به حقيق عليه أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب، وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر : 18 – 20]، يقول الله تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصالحات التي تنجيه أم السيئات التي توبقه، وليستحضر على الدوام أنه لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، ولا أهل المعصية وأهل الطاعة، ولا المتقين و الفجار، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

والمقصود أن صلاح العبد ونجاته بالوقوف على نفسه ومحاسبتها والإمساك بزمامها وإحكام لجامها، وفساده وعطبه بإهمالها والاسترسال معها في ملذاتها وشهواتها.



فوائد محاسبة النفس:

وفي محاسبة النفس عدة مصالح منها:

الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى وهذا عمل صالح، وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا، وقال مطرف بن عبد الله: لولا ما أعلم من نفسي لقليت الناس، وقال مصرف في دعائه بعرفة: اللهم لا ترد الناس لأجلي، وقال بكر بن عبد الله المزني: لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم، وقال أيوب السختياني: إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل، ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الأشهب وحماد بن سلمة فقال له حماد: يا أبا عبد الله أليس قد أمنت مما كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين فقال: يا أبا سلمه أتطمع لمثلي أن ينجو من النار، قال: إي والله إني لأرجو لك ذلك.

وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطي قال: أخبرني حماد بن جعفر بن زيد: أن أباه أخبره قال: خرجنا في غزاة إلى كابل وفي الجيش: صلة بن أشيم، فنزل الناس عند العتمة فصلوا ثم اضطجع فقلت: لأرمقن عمله، فالتمس غفلة الناس حتى إذا قلت: هدأت العيون، وثب فدخل غيضة قريبا منا، فدخلت على أثره، فتوضأ ثم قام يصلي، وجاء أسد حتى دنا منه، فصعدت في شجرة، فتراه التفت أو عده جروا، فلما سجد قلت: الآن يفترسه، فجلس ثم سلم ثم قال: أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر فولى، وإن له لزئيرا؛ أقول: تصدع الجبال منه، قال: فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس فحمد الله تعالى بمحامد لم أسمع بمثلها، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يصغر أن يجترئ أن يسألك الجنة، قال: ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا، وأصبحت وبي من الفترة شيء الله به عالم.

وقال يونس بن عبيد: إني لأجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم أن في نفسي منها واحدة، وقال محمد بن واسع: لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إلي، وذكر داود الطائي عند بعض الأمراء فأثنوا عليه فقال: لو يعلم الناس بعض ما نحن فيه ما ذل لنا لسان بذكر خير أبدا، وقال أبو حفص: من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات و لم يخالفها في جميع الأحوال و لم





يجرها إلى مكروهها في سائر أوقاته كان مغرورا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها.

فالنفس داعية إلى المهالك، معينة للأعداء، طامحة إلى كل قبيح، متبعة لكل سوء، فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة، فالنعمة التي لا خطر لها: الخروج من قبضتها، والتخلص من رقها، فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها، ومقتا وازدراءا لها، قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا علي بن الحسين المقدمي حدثنا عامر بن صالح عن أبيه عن ابن عمر: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم اغفر لي ظلمي وكفري فقال قائل: يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر؟ قال: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: 34].

قال: وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود عن الصلت بن دينار حدثنا عقبة ابن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز و جل: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ} [فاطر : 32]، فقالت: يا بني هؤلاء في الجنة؛ أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم، فجعلت نفسها معنا؛ رضي الله عنها وعنا.

ومن فوائد محاسبة النفس: أنه يعرف بذلك حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه، وهي قليلة المنفعة جدا، فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله سبحانه على العباد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والإزراء عليها، ويخلصه من العجب، ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدي ربه، واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يعبد فلا يشرك به، فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه علم علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا أن يتغمده الله تعالى بالعفو والمغفرة؛ والتوبة والرحمة؛ والحلم واللطف، وأنه إن أحيل على عمله وترك وكسبه هلك لا محال، فهذا محل نظر أهل المعرفة بالله تعالى وبنفوسهم، وهذا الذي أيأسهم من أنفسهم وعلق رجاءهم كله بعفو الله ورحمته؛ فيئس منهم الشيطان وسلك فجا غير فجهم.





وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدهم بضد ذلك، ينظرون في حقهم على الله تعالى ولا ينظرون في حق الله سبحانه عليهم، ويعجبون بنفوسهم وعملهم، ويرون استحقاق الأجرة والثواب، ومن ههنا انقطعوا عن الله تعالى، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه، ومنتهى غبنه وشقائه.

فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عز وجل عليه أولا، ثم نظره هل قام به كما ينبغي وفق مراد الله ورسوله ثانيا، وأفضل الفكر الفكر في ذلك، فإنه يسير القلب إلى الله تعالى، ويطرحه بين يديه سبحانه ذليلا خاضعا منكسرا كسرا فيه جبره، ومفتقرا فقرا فيه غناه، وذليلا ذلا فيه عزه، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذي فاته من البر أعظم وأفضل من الذي أتى، والذي خسره من الخير يطيش العقل إذا استبان له عشره.

فينبغي عليك أيها العبد إذا ذكرت الله تعالى أن تنتفض أعضاؤك ويقشعر جلدك ويصفر وجهك، وكن عند ذكره خاشعا مطمئنا، واجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يدي الله تعالى فقم مقام العبد الحقير الذليل، وذم نفسك فهي أولى بالذم، وناج ربك حين تناجيه بقلب وجل، ولسان صادق، وعين تبكي على ما فرطت في جنب الله تعالى، مستعينا به متوكلا عليه سبحانه، صابرا محتسبا، قال عز وجل: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [الأنفال: 2]، وقال تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ} [الحج: 34، 35].

ومن فوائد نظر العبد في حق الله عليه أن لا يتركه ذلك يدل بعمل أصلا كائنا ما كان، ومن أدل بعمله لم يصعد إلى الله تعالى و لم يتجاوز رأسه، كما ذكر الإمام أحمد عن بعض أهل العلم بالله تعالى أنه قال له رجل: إني لأقوم في صلاتي فأبكي حتى يكاد ينبت البقل من دموعي، فقال له: إنك أن تضحك وأنت تعترف لله بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، فإن صلاة الدال لا تصعد فوقه ، فقال له: أوصني قال: عليك بالزهد في الدنيا، وأن لا تنازعها أهلها، وأن تكون كالنحلة؛ إن أكلت أكلت طيبا، وإن وضعت وضعت طيبا، وإن وقعت على عود لم تضره و لم تكسره، وأوصيك بالنصح لله عز و جل نصح الكلب لأهله، فإنهم يجيعونه ويطردونه، ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم.



وبعد هذه التوطئة نشرع بإذن الله تعالى في المقصود من الكتاب؛ فنذكر عيوب النفس وعلاجها بقدر ما فتح الله به علينا، أعاننا الله وأعاذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وجعلنا من خاصته وأهل طاعته وكرامته.



عيوب النفس:

من عُيُوب النَّفس توهم النجَاة:

فَمن عُيُوب النَّفس أَنه يتَوَهَّم أَنه على بَاب نجاته، يقرع الْبَاب بفنون الْأَذْكَار والطاعات، وَالْبَاب مَفْتُوح، وَلكنه أغلق بَاب الرُّجُوع على نَفسه بِكَثْرَة المخالفات مع اللامبالاة؛ كَمَا يروى عن رَابِعَة أَنَّهَا مرت بِمَجْلِس صَالح المري فَقَالَ صَالح: من أدمن قرع الْبَاب يُوشك أَن يفتح لَهُ فَقَالَت رَابِعَة: الْبَاب مَفْتُوح وَأَنت تَفِر مِنْهُ كَيفَ تصل إِلَى مقصد أَخْطَأت الطَّرِيق مِنْهُ فِي أول قدم، فَكيف ينجو العَبْد من عُيُوب نَفسه وَهُوَ الذي أطلق لَهَا الشَّهَوَات، أم كَيفَ ينجو من اتِّبَاع الْهوى وَهُوَ لَا يتزجر عَن المخالفات.

قَالَ بعض الْحُكَمَاء: لَا تطمع أَن تصحو وليس فيك عيب وَلَا تطمع أَن تنجو وَعَلَيْك ذَنْب، ومداواة هذه الْحَالة بِمَا قَالَه سري السَّقطِي وَهُوَ: سلوك سَبِيل الْهدى وَطيب الْغذَاء وَكَمَال التقى.

من عُيُوب النَّفس استكشاف الضرّ مِمَّن لَا يملكهُ:

وَمن عيوبها استكشافه الضرّ مِمَّن لَا يملكهُ، ورجاؤه فِي النَّفْع مِمَّن لَا يقدر عَلَيْهِ، واهتمامه بالرزق وَقد تكفل لَهُ سبحانه به، ولكنه غفل عنه وظن فيمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا قوة واستقلالا؛ فتراه يلتفت إلى الأسباب ويعتقد فيها النفع والضر، وربما كان السبب غير مشروع، بل محرم وشرك؛ كالمزارات والقبور، ويعرض عن مسبب الأسباب عز وجل.

ومداواته الرُّجُوع إِلَى صِحَة الْإِيمَان بِمَا أخبر الله فِي كِتَابه: {وَإِن يمسسك الله بضر فَلَا كاشف لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يردك بِخَير فَلَا راد لفضله يُصِيب بِهِ من يَشَاء من عباده}، وَإِلَى قَوْله: {وَمَا من دَابَّة فِي الأَرْض إِلَّا على الله رزقها}، ويترل هذا المقام وَيُصْبِح لَهُ هَذَا الْحَال إِذا نظر إِلَى ضعف الْخلق وعجزهم، فَيعلم أَن كل من يكون مُحْتَاجا لَا يقدر على قَضَاء حَاجَة غَيره، وَمن يكون عَاجِزا لَا يُمكنهُ أَن يصلح أَسبَاب غَيره، فَيسلم من هَذِه الْخَطِيئَة وَيرجع إِلَى ربه بِالْكُلِّيَّةِ، فيحقق الإيمان ويصح له التوحيد ويسلم من أدران الشرك، فيكزن خالصا مخلصا لربه جل في علاه.



من عُيُوب النَّفس الفتور فِي الطَّاعَة:

وَمن عيوبها فتور العبد فِي حُقُوق كَانَ يقوم بهَا قبل ذَلِك، وَأتم مِنْهُ عَيْبا من لَا يهتم بتقصيره وتفريطه وفترته، وَأكْثر من ذَلِك عَيْبا من لَا يرى فترته وتقصيره، ثمَّ أَكثر مِنْهُ عَيْبا من يظنّ أنه يحسن صنعا ويرى نفسه متوفر محسن مَعَ فترته وتقصيره، وَهَذَا والله الداء العضال، وقد أوتي من قلّة شكره فِي وَقت توفيقه للْقِيَام بِهَذِهِ الْحُقُوق، فَلَمَّا قل شكره أزيل عَن مقَام التوفر إِلَى مقَام التَّقْصِير؛ وَيسْتر عَلَيْهِ نقصانه وَاسْتحْسن قبائحه، قَالَ الله تَعَالَى: {أَفَمَن زين لَهُ سوء عمله فَرَآهُ حسنا}.

والخلاص من ذَلِك بداوم الالتجاء إِلَى الله تَعَالَى، وملازمة ذكره، وَقِرَاءَة كِتَابه، والبحث عَن مطمعه، وتعظيم حُرْمَة الْمُسلمين، ومجالسة الصالحين، وسؤال الله تعالى أن يرده إِلَى حظيرة الشكر والبصيرة، وأَن يفتح عَلَيْهِ سَبِيل خدمته وطاعته، وليوقن أن دوام النعم شكرها؛ فبه تدوم بل تزيد.

واعلم أن كل عبد يسير وفق أخلاقه وطبيعته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، ولكن المؤمن يعمل بما يشاكله من شكر النعم والمنعم، ومحبته، والثناء عليه، والتودد إليه، والحياء منه، والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله، فكلما ازداد قربه وعلا مقامه قوي عزمه وتجرد صدقه وتفانى في شكر ربه، ولم يتوانى في حقه، فالصادق لا نهاية لطلبه ولا فتور لقصده ولا يخالط العجب والرياء قلبه، بل قصده أتم وطلبه أكمل ونيته أصح.

ومن عُيُوب النَّفس الطَّاعَة وَعدم الشُّعُور بلذها:

وَمن عيوبها أَن يُطِيع وَلَا يجد لطاعته لَذَّة ذَلِك؛ لشوب طَاعَته بالرياء، وَقلة إخلاصه فِي ذَلِك، أَو ترك سنة من السّنَن، ومداواها مُطَالَبَة النَّفس بالإخلاص وملازمة السّنة فِي الْأَفْعَال، وعرض الأحوال على الكتاب والسنة، وَبتَصْحِيح مبادئ أُمُوره يَصح لَهُ مُنْتَهَاهَا.

فمن رام الإخلاص فيلزمه أن تستوي أعماله في الباطن والظاهر، فإن كان ظاهره خيرا من باطنه كان مرائيا، فإذا كان باطنه أعمر من ظاهره فقد بلغ الذروة في الصدق في الإخلاص.

وكلام السلف فيه ما يشفي من بيان مفهوم الإخلاص ومفهوم الرياء؛ يتبين به العبد الداء والدواء، فقد قيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.



ومن كلام الفضيل رحمه الله تعالى: ترك العمل من أجل الناس: رياء، والعمل من أجل الناس: شرك، والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

وقال الجنيد رحمه الله تعالى: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقيل لسهل التستري رحمه الله تعالى: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم: الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله، ولا مجازيا سواه.

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

وَمن عيوبها أَن يحسن الظن بنفسه فيجعلها سبب الخير، وَلَو تحقق لَا يسر أهل المشهد من شُؤْم حُضُوره؛ كَمَا قيل لبَعض السّلف: كَيفَ رَأَيْت أهل الْموقف فَقَالَ: رَأَيْت أَقْوَامًا لَوْلَا أَنِّي كنت مَعَهم لرجوت الله أَن يغْفر لَهُم.

هَكَذَا طَرِيق أهل الْيَقَظَة، ومداواتها أَن يعلم أَن الله وَإِن غفر لَهُ ذنُوبه فقد رَآهُ متعثرا في أوحال الْخَطَايَا والمخالفات، فيستحيى من ذَلِك ويسيء بِنَفسِهِ الظَّن؛ كَمَا قَالَ الْفضيل بن عِيَاض رحمه الله تعالى: واسوأتاه مِنْك وَإِن غفرت، وَذَلِكَ يتحققه بِعلم الله فِيهِ وَنَظره إِلَيْهِ.

فهؤلاء قوم تابوا إلى الله تعالى وكانت ذنوبهم ومعاصيهم رحمة في حقهم؛ إذ نفت عنهم داء العجب، وخلصتهم من ثقتهم واعتدادهم بأنفسهم وإدلالهم بأعمالهم، ووضعت خد ضراعتهم وذلهم وانكسارهم على عتبة باب سيدهم ومولاهم، وعرفتهم قدرهم، وأشهدتهم فقرهم وضرورتهم إلى حفظ مولاهم لهم، وإلى عفوه عنهم ومغفرته لهم، وأخرجت من قلوبهم صولة الطاعة، وكسرت أنوفهم من أن يشمخوا بها أو يتكبروا بها، أو يروا أنفسهم بها خيرا من غيرهم، وأوقفتهم بين يدي ربهم ومولاهم الذي لا مولى لهم سواه موقف الخطاءين المذنبين، ناكسي الرؤوس بين يدي ربهم ومليكهم، على استحياء وخوف منه ووجل، محتقرين لطاعاتهم مستعظمين لمعاصيهم، فقد تقوى هذه الأمور، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته، ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة، بل قد ينال من الدرجات ما تعجز أعمالهم بلوغها.



فأي نعمة وصلت من الله إليهم استكثروها على أنفسهم، ورأوا نفوسهم دونها و لم يروها أهلا، وأي نقمة أو بلية وصلت إليهم رأوا أنفسهم أهلا لما هو أكبر منها، ورأوا مولاهم قد أحسن إليهم، إذ سترها عليهم و لم يعاقبهم على قدر جرمهم ولا شطره، ولا أدنى جزء منه، بل حلم عليهم وانتظرهم حتى تابوا، بل هو سبحانه من وفقهم للتوبة والإنابة، أفلا يستحق ربنا الحليم الغفور الشكر والعرفان؟؟ فلله الحمد كله، وله الشكر كله؛ لا إله إلا هو.

وَمن عيوبها أَنَّك لَا تحييها حَتَّى تميتها أي لَا تحييها للآخرة حَتَّى تميتها عَن الدُّنْيَا، وَلَا تحيى بِاللَّه حَتَّى تَمُوت عَن الأغيار، وَلذَلِك قَالَ يحيى بن معَاذ: من تقرب إِلَى الله بتَلف نَفسه حفظ الله عَلَيْهِ نَفسه، وَذَلِكَ أَن يمْنَعهَا عَن شهواتها ويحملها على مكارهها، فَإِن النَّفس لا تألف الْحق أبدا، ومداواتها السهر والجوع والظمأ وركوب مُخَالفَة الطَّبْع وَالنَّفس والهوى، ومنعها عَن الشَّهَوَات، قال يحيى بن معَاذ: الْجُوع طَعَام بِهِ يقوي الله أبدان الصديقين.

وبيان هذه الجملة أن تعلم أن تلف النفس حرام إلا في منفعة عائدة على الدين وعلى المسلمين، فهذا مقام شريف مدح الله تعالى به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ} وقال تعالى: {وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، وقال عز وجل: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}، في نظائر ذلك من الآي التي مدح الله فيها من بذل نفسه لله سبحانه.

النَّفس لَا تألف الْحق:

وَمن عيوبها أَنَّهَا لَا تألف الْحق أبدا، وَالطَّاعَة خلاف سجيتها وطبعها، ويتولد أَكثر ذَلِك من مُتَابعَة الْهوى وَاتِّبَاع الشَّهَوَات، ومداواتها الْخُرُوج مِنْهَا بِالْكُلِّيَّةِ إِلَى رَبهَا، ومباينتها البينونة التي لا رجعة فيها، كَمَا يروى أن ابْن زادان سُئِلَ عَن العَبْد إذا خرج إِلَى الله على أي أصل يخرج فقَالَ: على أَن لَا يعود إِلَى مَا مِنْهُ خرج وَحفظ عَن مُلَاحظَة مَا يَبْدُو مِنْهُ إِلَى الله.

وليس الأمر على إطلاقه؛ فإنه قد تعود النفس على الحق فيصير لها سجية وطبعا، حتى إنها بعد ذلك تمقت شهواتها وملذاتها في ذات الله تعالى، حيث عاينت بعين اليقين عاقبة الحق و ذاقت لذته فما عدلت بها شيئا بعده، ولكنه أمر تحتاج كثير من النفوس فيه إلى التدرج، والشريعة الغراء علمتنا تعويد النفس وترويضها وتطويعها حتى بلوغ الكمال.



مثال ذلك: التخيير في الصوم في أول الإسلام بين الإطعام وبينه؛ لما كان غير مألوف لهم ولا معتاد والطباع تأباه، إذ هو هجر مألوفها ومحبوبها، ولم تذق بعد حلاوته وعواقبه المحمودة، وما في طيه من المصالح والمنافع، فخيرت بينه وبين الإطعام وندبت إليه، فلما عرفت علته وحكمته وعرفت ما تضمنه من المصالح والفوائد؛ فرضه عليها ولم يقبل منها سواه، فكان التخيير في وقته مصلحة ورفقا بها، وتعيين الصوم في وقته مصلحة بالغة، فاقتضت الحكمة البالغة شرع كل حكم في وقته، لأن المصلحة فيه في ذلك الوقت؛ فالنفس تقبل كل أمر في وقته حيث إنها ثمة تذوق لذته وتعاين مصلحته والفائدة منه.

وكذلك فرض الصلاة أولا ركعتين ركعتين؛ لما كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يكونوا معتادين لها، ولا ألفتها طباعهم ونفوسهم وعقولهم، فرضت عليهم مخففة فلما ذالت بها جوارحهم، وطوعت بها أنفسهم، واطمأنت إليها قلوبهم، وباشرت نعيمها ولذتها وطيبها، وذاقت حلاوة عبودية الله سبحانه فيها، ولذة مناجاته، زيدت ضعفها، وأقرت في السفر على الفرض الأول لحاجة المسافر إلى التخفيف، ولمشقة السفر عليه، فتأمل كيف جاء كل حكم في وقته مطابقا للمصلحة والحكمة، شاهدا لله تعالى بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؛ الذي بهرت حكمته العقول والألباب، وبدا على صفحاتها بأن ما خالفها هو الباطل، وأنها هي عين المصلحة والصواب.

ومن هذا أمره سبحانه لهم بالإعراض عن الكافرين، وترك آذاهم، والصبر عليهم، والعفو عنهم، لما كان ذلك عين المصلحة لقلة عدد المسلمين وضعف شوكتهم وغلبة عدوهم، فكان هذا في حقهم إذ ذاك عين المصلحة في مجارات النفس وترويضها وتطويعها، فلما تحيزوا إلى دار وكثر عددهم وقويت شوكتهم وتجرأت أنفسهم لمناجزة عدوهم أذن لهم في ذلك إذنا من غير إيجاب عليهم، ليذيقهم حلاوة النصر والظفر وعز الغلبة، وكان الجهاد أشق شيء على النفوس فجعله أولا إلى اختيارهم إذنا لا حتما، فلما ذاقوا عز النصر والظفر، وعرفوا عواقبه الحميدة أوجبه عليهم حتما، فانقادوا له طوعا ورغبة ومحبة، فلو أتاهم الأمر به فجأة على ضعف وقلة لنفروا عنه أشد النفار، فما أعظمها من شريعة علمتنا كيف نسوس أنفسنا، ونسوقها إلى الخير طوعا لا كراهية، حتى ما إذا ذاقت حلاوة الطاعة، ولمست فوائدها؛ لم تعدل بها شيئا من ملذاتها وشهواتها في اتباع هواها.





وقد أشرنا إلى يسير يتبين به الكثير مما جاءت به الشريعة التي أنزلها الله تعالى، وجعلها الخاتمة؛ لإصلاح العباد والبلاد، فهو سبحانه الأعلم بما يصلحنا وكيف يستصلحنا، وهو أحكم الحاكمين.

وهنا لابد من بيان أن النفس تابعة للهوى، معرضة عن الطاعة، فنقول في ذم الهوى ما يبعد عنه من أراد الله تعالى له النجاة من هواه:

ذم الهوى:

اعلم وفقك الله وإياي أن النفس مجبولة على حب الهوى مع ما فيه من الأذى، فافتقرنا لذلك إلى مجاهدتها ومخالفتها، ومتى لم تزجر عن الهوى تحرك الفكر تجاهها وهجم عليها في طلب ما شغفت به، فاستأنست بالآراء الفاسدة والأطماع الكاذبة والأماني العجيبة؛ خصوصا إن ساعد الشباب الذي هو شعبة من الجنون، وامتد ساعد القدرة إلى نيل المطلوب.

والهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل وإلى المشرب ما شرب وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلب له ما يفيد كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يذم المفرط من ذلك وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار.

ولما كان الغالب من موافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع أطلق ذم الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى في النفس، وإذا فهم تعذر وجود العمل به وندر، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه، وقال الشعبي: إنما سمي هوى لأنه يهوي بصاحبه.

واعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يشمه، ويتربص به، ويترصده، ويطوف به متصيدا من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله؛ فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوى، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

واعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ولا مآل، ويحث على نيل الشهوات عاجلا وإن كانت سببا للألم والأذى في العاجل ومنع لذات أعظم في الآجل، فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألما، وشهوة تورث ندما، وكفى بهذا القدر مدحا للعقل وذما للهوى.





وبهذا القدر فضل الآدمي على البهائم؛ أعني ملكة الفكر والإرادة، لأن البهائم واقفة مع طباعها لا نظر لها إلى عاقبة ولا فكر في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول والنكاح أي وقت اتفق، والآدمي يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه وغلبة حيائه لجرأته.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبا وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل الصريح المؤيد بالنقل الصحيح، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة والعاجلة والتي كثيرا ما تخفى وتغيب؛ ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى؛ إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة العاجلة والآجلة.

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب، ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته ولا يؤمن جانبه، وليعلم أنه لم يخلق للهوى، وإنما هيئ لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصيته للهوى؛ كما قيل: قد هيأوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل.

وليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري وتعودتها نفوسهم وألفوها، ولهذا ترى مدمن الخمر والمخدرات والحريص على المال والسلطان لا يلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن، غير أن العادة تقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوده، ولو زال رين الهوى عن بصر بصيرته لرأى أنه قد شقي من حيث قدر السعادة؛ واغتم من حيث ظن الفرح؛ وألم من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ؛ لا هو نال ما خدع به؛ ولا أطاق التخلص مما وقع فيه.

ومدار الخلاص من اتباع الهوى على: عزيمة حر يغار لنفسه وعليها، وجرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها، وقوة نفس تشجعه وتصبره، وعين بصيرة بألم اتباع الهوى وحسن العاقبة في مخالفة النفس وما تهوى.

فإن قال قائل: فكيف يتخلص من هذا من قد نشب فيه وتربى عليه وتعود؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في ترك مالا يؤمن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونهما بعون الله وتوفيقه له أمور:

أحدها: التفكر في أن الإنسان لم يخلق للهوى، وإنما هيئ للنظر في العواقب والعمل للآجل، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح مالا يناله الإنسان؛





مع عيش هنيء خال عن فكر وهم، ولهذا تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب، والآدمي لا ينال ما تناله لقوة الفكر الشاغل والهم الواغل وضعف الآلة المستعملة، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما بخس حظ الآدمي الشريف منه وزيد حظ البهائم، وفي توفير حظ الآدمي من العقل وبخس حظه من الهوى ما يكفي في فضل هذا وذم ذاك.

والثاني: أن يفكر في عواقب الهوى، فكم قد أفات من فضيلة، وكم قد أوقع في رذيلة، وكم من مطعم قد أوقع في مرض، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم، غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى.

والثالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه ثم يتصور الأذى الحاصل عقب اللذة، فإنه يراه يربى على الهوى أضعافا، وقد أنشد بعض الحكماء:

وأفضل الناس من لم يرتكب سببا ... حتى يميز ما تجني عواقبه

والرابع: أن يتصور ذلك في حق غيره ثم يتلمح عاقبته بفكره، فإنه سيرى ما يعلم به عيبه؛ إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء وأن عواقبه وخيمة وخسارته كبيرة، فلو تأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة، وكم أوقعت في رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذة فوتت لذات، وكم من شهوة كسرت جاها، ونكست رأسا، وقبحت ذكرا، وأورثت ذما، وأعقبت ذلا، وألزمت عارا لا يغسله الماء، لأيقن أن عين الهوى عمياء.

والسادس: أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر، فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة عز، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر.

والسابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض والأجر في الآخرة، ثم يعكس فيتفكر لو وافق هواه في حصول عكس ذلك على الأبد، وليفرض لهاتين الحالتين حالتي آدم ويوسف عليهما السلام في لقمة هذا كيف أنزلته من الجنة إلى الأرض؛ وصبر هذا كيف صيره عزيز مصر بعد أن كان في السجن.

واعلم أن الهوى يسري بصاحبه في فنون، ويخرجه من دار العقل إلى دائرة الجنون، فقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم من البدعة والضلالة، وقد يكون





في الزهد فيخرج إلى الرياء ومخالفة السنة، وقد يكون في الحكم فيخرج إلى الظلم ويصده عن الحق، وقد يكون في القسمة فيخرج عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وقد يكون في الولاية والعزل فيخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولي بهواه ويعزل بهواه، وقد يكون في الحلم والصبر فيخرج إلى الصرعة والانتقام، وقد يكون في التأني فيخرج إلى التسرع، وقد يكون في السماحة فيخرج إلى الغيض والحقد، وقد يكون في العدل فيخرج إلى الظلم، وقد، وقد؛...، فما قارن شيئا إلا أفسده.

النَّفس تألف الخواطر الرَّديئَة:

وَمن عيوبها أَنَّهَا تألف الخواطر الرَّديئَة فتستحكم عَلَيْهَا المخالفات، ومداواتها رد تِلْكَ الخواطر فِي الِابْتِدَاء لِئَلَّا تستفحل وتستحكم، وَذَلِكَ بِالذكر الدَّائِم، وملازمة الْخَوْف بِالْعلمِ أَن الله يعلم مَا فِي سرك كَمَا يعلم الْخلق مَا فِي علانيتك، بل أعظم، فتستحي مِنْهُ أَن تصلح لِلْخلقِ مَوضِع نظرهم وَلَا تصلح مَوضِع نظر الْحق، وَقد قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "إِن الله لا ينظر إِلَى صوركُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالكُم وَلَكِن ينظر إِلَى قُلُوبكُمْ"، وقال إِبْرَاهِيم الْخَواص رحمه الله تعالى: أول الذَّنب الخطرة فَإِن تداركها صَاحبهَا بالكراهية وَإِلَّا صَارَت سقط الْهوى فتصد الْعقل وَالْعلم وَالْبَيَان.

بيان منشأ الإرادة والفعل من الخواطر والأفكار:

إن مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة، فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها، والنفس تتعود ما عودها صاحبها.

فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة على مرضاته ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ، ومن توليه وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء، فيضفر العبد بكل خير وهدى ورشد بقدر إثبات عين فكرته في آلائه ونعمه وتوحيده، وطرق معرفته وطرق عبوديته، وإنزاله إياه حاضرا معه مشاهدا له ناظرا إليه رقيبا عليه مطلعا على خواطره وإراداته وهمه، فحينئذ يستحي منه ويجله أن يطلعه منه على عورة يكره أن يطلع عليها مخلوق مثله، أو يرى من نفسه خاطرا يمقته عليه.





فمتى أنزل ربه هذه المترلة منه رفعه وقربه منه، وأكرمه واجتباه ووالاه، وبقدر ذلك يبعد عن الأوساخ والدناآت والخواطر الرديئة والأفكار الدنيئة، وكلما بعد منه وأعرض عنه قرب من الأوساخ والدناآت والأقذار، وانقطع عن جميع الكمالات، واتصل بجميع العيوب والنقائص.

فالإنسان خير المخلوقات وأفضلها إذا تقرب من بارئه والتزم أوامره ونواهيه، وعمل بمرضاته، وآثره على هواه، وهو شر المخلوقات وأنقصها إذا تباعد عنه، ولم يتحرك قلبه لقربه وطاعته وابتغاء مرضاته، وأشد منه شرا ونقصا من زاد على ذلك بأن تبغض إليه بأنواع من الشرور والمناهي، فمتى اختار التقرب إليه وآثره على نفسه وهواه فقد حكم قلبه وعقله وإيمانه على نفسه وشيطانه، وحكم رشده على غيه، وهداه على هواه، ومتى اختار التباعد منه فقد حكم نفسه وهواه وشيطانه على عقله وقلبه ورشده.

وأعلم أن الخاطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها الذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة، فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

ومعلوم أنه لم يعط الإنسان إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النفس على صدره، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له وسروره به، وعلى رفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه، كما قال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم: يا رسول الله إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أحب إليه من أن يتكلم به فقال: أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذاك صريح الإيمان، وفي لفظ: الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة، وفيه قولان: أحدهما: أن رده وكراهيته صريح الإيمان، والثاني: أن وجوده وإلقاء الشيطان له في النفس صريح الإيمان، فإنه إنما ألقاه في النفس طلبا لمعارضة الإيمان و إزالته به.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن، ولا بد لها من شيء تطحنه، فإن وضع فيها حب طحنته، وإن وضع فيها تراب أو حصا طحنته، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمترلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه



وغيره، وأكثرهم يطحن رملا وحصا وتبنا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه.

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرا جوالا، فاستخدم الإرادة فتساعدت هي والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالتمني والتشهي وتوجهه إلى جهة المراد، ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد والمألوفات.

فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون مالا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه، فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعد بها أو تتقرب من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك، ومن كان في خواطره ومجالات فكره دنيئا خسيسا لم يكن في سائر أمره إلا كذلك، وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإرادتك، فإنه يفسدها عليك فسادا يصعب تداركه، ويلقي إليك أنواع الوساوس والأفكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك، فملكها عليك.

فمثالك معه مثال صاحب رحى يطحن فيها جيد الحبوب، فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونته، فإن طرده و لم يمكنه من إلقاء ما معه في الطاحون استمر على طحن ما ينفعه، وإن مكنه في إلقاء ذلك في الطاحون أفسد ما فيها من الحب، و خرج الطحين كله فاسدا.

والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل الوجود لو كان على خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أو فيما يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام، أو في خيالات وهمية لا حقيقة لها، وإما في باطل أو فيما لا سبيل إلى إدراكه من أنواع ما طوي عنه علمه، فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها على نهاية، فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه.



وجماع إصلاح ذلك أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى الدخول إلى الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادة ما ينفعك إرادته وطرح إرادة ما يضرك إرادته، وعند العارفين أن تمني الخيانة وإشغال الفكر والقلب بها أضر على القلب من نفس الخيانة، ولاسيما إذا فرغ قلبه منها بعد مباشرتها فإن تمنيها يشغل القلب بها ويملؤه منها ويجعلها همه ومراده، وأنت تجد في الشاهد أن الملك من البشر إذا كان في بعض حاشيته وخدمه من هو متمن لخيانته مشغول القلب والفكر بها ممتلئ منها وهو مع ذلك في خدمته وقضاء أشغاله، فإذا اطلع على سره وقصده مقته غاية المقت وابغضه وقابله بما يستحقه، وكان أبغض إليه من رجل بعيد عنه جنى بعض الجنايات وقلبه وسره مع الملك غير منطو على تمني الخيانة ومحبتها والحرص عليها، فالأول يتركها عجزا واشتغالا بما هو فيه وقلبه ممتلئ بها، والثاني يفعلها وقلبه كاره لها ليس فيه إضمار الخيانة ولا الإصرار عليها، فهذا أحسن حالا وأسلم عاقبة من الأول.

وبالجملة فالقلب لا يخلو من الفكر، إما في واجب آخرته ومصالحها؛ وإما في مصالح دنياه ومعاشه؛ وإما في الوساوس والأماني الباطلة والمقدرات المفروضة، وقد تقدم أن النفس مثلها كمثل رحى تدور بما يلقى فيها، فإن ألقيت فيها حبا دارت به، وإن ألقيت فيها زجاجا وحصا وبعرا دارت به، والله سبحانه هو قيم تلك الرحى ومالكها ومصرفها، وقد أقام لها ملكا يلقي فيها ما ينفعها فتدور به، وشيطانا يلقي فيها ما يضرها فتدور به، فالملك يلم بها مرة والشيطان يلم بها مرة، فالحب الذي يلقيه الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، والحب الذي يلقيه الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد، والطحين على قدر الحب، وصاحب الحب المضر لا يتمكن من إلقائه إلا إذا وجد الرحى فارغة من الحب النافع، وقيمها قد أهملها وأعرض عنها، فحينئذ يبادر إلى إلقاء ما معه فيها.

وبالجملة فقيم الرحى إذا تخلى عنها وعن إصلاحها وإلقاء الحب النافع فيها وجد العدو السبيل إلى إفسادها وإرادتها بما معه، وأصل صلاح هذه الرحى بالاشتغال بما يعنيك، وفسادها كله في الاشتغال بما لا يعنيك، وما أحسن ما قال شقيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل،





والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الإقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلت: وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون، فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته وشرف النفس ونبلها وكبرها، وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها، قال تعالى: {قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها} أي: أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله تعالى، وخاب من صغرها وحقرها بمعصية الله سبحانه، فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

فالنفس الشريفة العلية النبيلة لا ترضى بالظلم ولا بالفواحش ولا بالسرقة والخيانة لأنها أكبر من ذلك وأجل وأنبل، والنفس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: {قل كل يعمل على شاكلته} أي: على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر النعم ومحبة المنعم والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله.

من عُيُوب النَّفس الْغَفْلَة والتواني:

وَمن عيوبها الْغَفْلَة والتواني والإصرار والتسويف وتقريب الأمل وتبعيد الْأَجَل، وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكباً على قلبه، وصدأه بحسب غفلته، فيظلم القلب ويحرم العلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه ؛ فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقاً ولا ينكر باطلاً، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر.

قال ابن القيم : (الذكر ينبه القلب من نومه، ويوقظه من سنته، والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شد



المئزر وأحيى بقية عمره واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر، فإن الغفلة نوم ثقيل)، وقال بعض السلف رحمة الله عليهم: ما أقبح الغفلة عن ذكر من لا يغفل عن ذكرك.

واعلم أن سرورها ومدحها وطلبها الرَّاحَة من نتائج الْغَفْلَة، ومداواتها التيقظ لما بَين يَديهَا ولزوم اليقظة، وَعلمهَا بتقصيرها فِيمَا أَمر بِهِ وارتكابها مَا نهى عَنهُ، وَأَن هَذِه الدَّار لَها سجن، وأنه لَا سرُور وَلَا رَاحَة فِي السجْن، فَإِن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: "الدُّنْيَا سجن الْمُؤمن وجنة الْكَافِر"، فَيجب أَن يكون عيشه فِيهَا عَيْش المسجونين لَا عَيْش المستروحين.

وتتمة الدواء مَا قاله الْجُنَيْد رحمه الله تعالى لما سُئِلَ: كَيفَ السَّبِيل إِلَى الِانْقِطَاع إِلَى الله؟ فَقَالَ: بتوبة تحل الْإِصْرَار وَخَوف يزيل التسويف ورجاء يبْعَث على قصد مسالك الْعَمَل وَذكر الله على اخْتِلَاف الْأَوْقَات وإهانة النَّفس بقربها من الْأَجَل وَبعدهَا عَن الأمل، قيل: فَبِمَ يصل العَبْد إِلَى هَذَا؟ فَقَالَ: بقلب مُفْرد فِيهِ تَوْحِيد مُجَرّد.

فسكر الغفلة يورث التلذذ بالمعاصي، وعلى قدر قوة الغفلة تنال الشهوات، وتتجرأ النفوس على معصية الله تعالى، فتقترف من الذنوب ما يزيدها غيا وبعدا، فأما المؤمن، فإنه لا يلتذ؛ لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علم التحريم، وحذر العقوبة، فإن قويت معرفته، رأى بعين علمه قرب الناهي وعظمة من يعصي، وأنه سبحانه ناظر إليه رقيب قادر عليه، فيتنغص عيشه في حال التذاذه، وما هي إلا لحظة حتى حاصره ندم ملازم، وأجهشت عينه ببكاء متواصل، وأسف على ما كان مع طول الزمان، حتى أنه لو تيقن العفو، وقف بإزائه حذر العتاب، فأفٍّ للذنوب! ما أقبح آثارها! وما أسوأ أخبارها! ولا كانت شهوة لا تنال إلا بمقدار قوة الغفلة.

فيا أيها المذنب العاصي هلا عاتبت نفسك، وهلا تسلحت بالعلم والإيمان وتشجعت باليقين، وخاطبتها من فوق وقلت لها: يا نفس السوء! تسألين الله عز وجل حاجاتك، وتنسين جناياتك!! أو مثلك ينطق؟! فإن قالت: فممن أطلب مراداتي؟! فقل لها: ألا تفهمين؟! ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حققي التوبة وانطقي.

فالله الله من جراءةٍ على طلب الأغراض، مع نسيان ما تقدم من الذنوب، التي توجب تنكيس الرأس، ولئن تشاغلت بإصلاح ما مضى، والندم عليه، وذكر الله عز وجل، جاءتك مراداتك، كما روي: "من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين".



وقد كان بشر الحافي رحمه الله تعالى يبسط يديه للسؤال، ثم يسبلهما، ويقول: مثلي لا يسأل! ما أبقت الذنوب لي وَجْهًا، وهذا يختص ببشر لقوة معرفته، كان وقت السؤال كالمخاطب كفاحًا، فاستحيا للزلل، فأما أهل الغفلة، فسؤالهم على بعد، فافهم ما ذكرته، وتشاغل بالتوبة من الزلل.

ثم العجب من سؤالاتك أيها المذنب العاصي! فإنك لا تكاد تسأل مهمًّا من الدنيا، بل فضول العيش، ولا تسأل صلاح القلب والدين مثل ما تسأل صلاح الدنيا، ولا تهتم بآخرتك مثلما تهتم بدنياك، ولا بدينك مثلما تهتم بمالك وسلطانك، فاعتقل أمرك؛ فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جُرُفٍ، وليكن حزنك على زلاتك شاغلًا لك عن مراداتك، فقد كان الحسن البصري شديد الخوف، فلما قيل له في ذلك؟ قال: وما يؤمنني أن يكون اطلع على بعض ذنوبي فقال: اذهب؛ لا غفرت لك؟!.

وَمن عيوبها رؤيتها والشَّفَقَة عَلَيْهَا، ومداواتها رُؤْيَة فضل الله عَلَيْهِ فِي جَمِيع الْأَحْوَال يسْقط عَنهُ رُؤْيَة النَّفس، كما قال الوَاسِطِيّ: أقرب شيء إِلَى مقت الله رُؤْيَة النَّفس وأفعالها.

فالتبرؤ من رؤية النفس والحول والقوة أمر لا يضعه الله تعالى إلا عند من يحبه، وحقيقته أن لا يستغني إلا بالله، ورسمه: عدم الأسباب كلها بعدم الوثوق بها والوقوف معها، فيصير العبد كله لله عز وجل، ولا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه، فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه فتوحيده مدخول.

واعلم أن دوام الافتقار إلى الله تعالى مع التخليط، خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب، مع أنه لا صفاء معهما، وهما أقرب شيء إلى مقت الله تعالى، فإن من رأى نفسه، تكبر، والمتكبر أحمق؛ لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه.

فمن رأى نفسه وأعجب بها ورآها أهلا للثواب والجزاء، وربما ترقت بقوة علمها وعرفانها إلى دعوى قولها: لي، وعندي، واستحق..، فلينظر إلى سقطاتها وذنوبها، وليقابل تمردها وعصيانها لمن أعطاها من الفضائل التي بدل أن تشكرها رأت نفسها وسقطت في أوحال العجب، فلا بد لها من هفوة تراقبها عين الخوف من عقابها، فتصلح لها عبودية وتسلم لها عبادة، فلو قامت بحق المنعم وذل العبودية حبا وخوفا ورجاء لكان أولى بها، وإلى هذا المعنى أشار الحديث الصحيح: "لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، وجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون، فيغفر لهم".



الكلام على رؤية النفس

ومن عُيُوب النَّفس الِاشْتِغَال بعيوب النَّاس:

وَمن عيوبها اشتغالها بعيوب النَّاس عَمَّا بهَا من عيبها، ومداواتها فِي الْأَسْفَار والانقطاع ومحبة الصَّالِحين والائتمار بأوامرهم، وَأَقل مَا فِيهِ إِذا لم يعْمل فِي مداواة عُيُوب نَفسه أَن يسكت عَن عُيُوب النَّاس ويعذرهم فِيهَا وَيستر عَلَيْهِم خزاياهم رَجَاء أَن يصلح الله بذلك عيوبه، فَإِن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: "من ستر على أَخِيه الْمُسلم ستر الله عَوْرَته وَمن تتبع عَورَة أَخِيه الْمُسلم تتبع الله عَوْرَته حَتَّى يَفْضَحهُ فِي جَوف بَيته"، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأَول علامة السعادة، والثاني علامة الشقاوة، وقال زَاذَان المدايني: رَأَيْت أَقْوَامًا من النَّاس لَهُم عُيُوب فَسَكَتُوا عَن عُيُوب النَّاس فَستر الله عيوبهم وزالت عَنْهُم تِلْكَ الْعُيُوب، وَرَأَيْت أَقْوَامًا لم تكن لَهُم عُيُوب اشتغلوا بعيوب النَّاس فَصَارَت لَهُم عُيُوب.

واعلم أن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان، فإن الله سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستير يحب من يستر على عباده، وعفو يحب من يعفو عنهم، وغفور يحب من يغفر لهم، ولطيف يحب اللطيف من عباده، ويبغض الفظ الغليظ القاسي، ورفيق يحب الرفق، وحليم يحب الحلم، وبر يحب البر وأهله، وعدل يحب العدل، وقابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدماً، فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن حاقق حاققه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن تتبع عورتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن شاق شاق الله تعالى به، ومن مكر مكر به، ومن خادع خادعه، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة.

فلا تتبع نفسك هواها تجاه الناس، وعاملهم على خلاف هوى النفس؛ من الرحمة والرفق واللين والستر والاعتذار والصفح والمغفرة والجود والكرم ونحوها؛ لعلك تنال أعظم من الله تعالى، الغفور الرحيم الكريم الجواد، وكن لعباده كما تحب أن يكون لك.





من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس، ومن عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه، أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق، أخسر الناس صفقة من اشتغل عن الله بنفسه، بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.

الِاشْتِغَال بتزيين الظَّاهِر:

وَمن عيوبها الِاشْتِغَال بتزيين الظَّوَاهِر والتخشع من غير خشوع والتعبد من غير حُضُور، ومداواتها الِاشْتِغَال بِحِفْظ الْأَسْرَار ليزين أنوار بَاطِنه أَفعَال ظَاهره، فَيكون مزينا من غير زِينَة، مهيبا من غير تبع، عَزِيزًا من غير عشيرة، وَلذَلِك قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "من أصلح سَرِيرَته أصلح الله عَلَانِيَته".

وما أقل من يعمل لله تعالى خالصًا! لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم والتعالم على غيرهم، وسفيان الثوري كان يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي!، واعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل والتعلم، وإخلاص القصد، وستر الحال: وهو الذي رفع من رفع.

ونكتة الأمر إصلاح النيات، وترك التزين للخلق! ولتكن عمدتك الاستقامة مع الحق، وأن تكون مع الحق بلا خلق ومع الخلق بلا نفس، فبذلك ترقى السلف وعلوا وسعدوا، وإياك وما الناس عليه اليوم؛ فإنه بالإضافة إلى يقظة السلف نوم.

فالصادق مطلوبه رضوان ربه، بامتثال أوامره، وتتبع محابه والابتعاد عما يسخطه، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو، ثم في حج، ثم في إحسان للخلق بالصدقة والنصح والتعليم وغيره، ثم في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو في قيام بسبب في عمارة الدين والدنيا.

فهو في تفرق دائم لله تعالى، وجمعية على الله عز وجل، لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع، ولا يتقيد بقيد ولا إشارة، ولا بمكان معين يصلي فيه لا يصلي في غيره، ولا بزي معين لا يلبس سواه، ولا بعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها.

فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع، وعبادة النفس، وإيثار مرادها، والإشارة إليها والنظر إلى الخلق؛ كلها في هذه الأوضاع، والرسوم والقيود، التي كبلت أربابها وحبستهم عن السير إلى قلوبهم، فضلا عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى، فإذا خرج أحدهم عن رسمه ووضعه





وزيه وقيده وإشارته استهجن ذلك، ورآه نقصا، وسقوطا من أعين الناس، وانحطاطا لرتبته عندهم، وهو قد انحط وسقط من عين الله تعالى.

وقد يحس أحدهم ذلك من نفسه وحاله. ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيه وقيوده أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه، وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه، العامل على عمارة نفسه ومرتبته ومكانته عند الخلق، وهذا هو النفاق بعينه، ولو كان عاملا على مراد الله منه، وعلى الصدق مع الله لأثقلته تلك القيود، وحبسته تلك الرسوم، ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه؛ ومحض الشرك والنفاق لا التوحيد والإخلاص، ولما بالى أي ثوب لبس، ولا أي عمل عمل، إذا كان على مراد الله من العبد.





من عيوب النفس رؤيتها استحقاق الأجر:

وَمن عيوبها طلب الْعِوَض على أَعمالهَا، ومداواتها رُؤْيَة تَقْصِيره فِي عمله وَقلة إخلاصه، فَإِن الْكيس فِي عمله من أعرض عَن طلب الْأَعْوَاض أدبا وتورعا عَنهُ صرفا عَالما بِأَن الَّذِي قدر لَهُ يَأْتِيهِ دنيا وآخرة وَأَن الَّذِي عَلَيْهِ لَا يُخرجهُ مِنْهُ إلا الْإِخْلَاص.

فقد يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه، والذي يخلصه من رؤية عمله معرفة ربه ومعرفة نفسه، وذلك بمشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب عمله مشيئة الله لا مشيئة نفسه، كما قال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: 29]، وأنه لو خلي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء البتة، فإن النفس جاهلة ظالمة، طبعها الكسل، وإيثار الشهوات والبطالة، وهي منبع كل شر، ومأوى كل سوء، فكيف يصدر منها خير؟، فالخير الذي يصدر منها إنما هو من الله وبه، لا من العبد، ولا به، كما قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ} [النور: 21] ، وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: 43] ، وقال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} [الإسراء: 74]، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} [الحجرات: 7] الْآيَةَ.

والذي يخلصه من طلب العوض على العمل علمه بأنه عبد محض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة؛ إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه، وإحسان إليه، وإنعام عليه، لا معاوضة.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما: مطالعة عيوب عمله وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان، فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب، وإن قل، وللنفس فيه حظ وإن خفي.

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته؟ فقال: "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد"، فإذا كان هذا التفات جارحة من جوارحه؛ فكيف التفات





قلبه إلى ما سوى الله؟ هذا أعظم نصيب الشيطان من العبودية، وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون؛ الذين لهم خبرة بأمراض النفوس من: العجب والرياء والشهرة وطلب السمعة والثناء والكبر والحسد ونحوها، ولم يكتفوا بمعرفتهم بما يزكي النفس بل تمرسوا في تزكية نفوسهم وجاهدوها في الله حق جهاده.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروط صحتها وكمالها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقا، وأن يرضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين لأنه يتهمها على الدوام، ويستحيي من مقابلة الله بعمله.

فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه، قال بعض السلف: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور، وقال تعالى: {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون} [المؤمنون: 60]، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه"، وقال بعضهم: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني، الذي يراه الناس، حياء من الله عز وجل، فالمؤمن: جمع إحسانا في مخافة وسوء ظن بنفسه، والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

فلا بد للعبد في ما يأتيه من عمل أن يجتهد فيه، وأن يخجل ويستحي من الله عز وجل أن يتقدم له بعمل ناقص صدر عن ناقص، وأن يصون عمله عن شهوده من نفسه، بل يراه محض توفيق الله ومنه وما كان إلا بحوله وقوته سبحانه وتعالى، ثم عليه أن يجعل عمله تابعا للعلم؛ له شاهد من الكتاب والسنة، موافقا له، مؤتما به؛ يسير بسيره ويقف بوقوفه، ويتحرك بحركته، نازلا منازله، مرتويا من موارده، ناظرا إلى الحكم الديني الأمري، متقيدا به، فعلا وتركا، وطلبا وهربا، ناظرا إلى ترتب الثواب والعقاب عليه سببا وكسبا، مشاهدا للحكم الكوني القضائي، الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات، والحركات والسكنات، ولا يبقى هناك غير محض المشيئة، وتفرد الرب وحده بالأفعال، ومصدرها عن إرادته ومشيئته.

والمقصود أن يكون ناظرا إلى الحقيقة، قائما بالشريعة، وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير:



28 - 29]، وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: 29 - 30].

فهذه أربعة أمور: بذل الجهد، وتحكيم العلم، والنظر إلى الحقيقة، والتخلص من الالتفات إلى غيره -لا النفس ولا الخلق-، والله الموفق والمعين.

من عيوب النفس فقدان لذة الطاعة:

وَمن عيوبها فقدان لَذَّة الطَّاعَة وَذَلِكَ من سقم الْقلب وخيانة السِّرّ، ومداواتها جملة: حب الله ورسوله، وتفصيلا: الصبر، وأكل الْحَلَال، ومداومة الذّكر، وقيم الليل، وخدمة الصَّالِحين والدنو منهم وصحبتهم، والدعاء والتضرع إِلى الله تَعَالَى فِي ذَلِك ليمن على قلبه بِالصِّحَّةِ والعافية بِزَوَال ظلمات الأسقام وإعمارها بنور الوحي، فيجد عِنْدها لَذَّة الطَّاعَة وحلاوة الإيمان.

فالطاعة لها لذة لا يجدها إلا محب، فذاك الذي يتلذذ بخدمة محبوبه، وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل، فليزن العبد إيمانه ومحبته لله تعالى بهذا الميزان، ولينظر هل هو ملتذ بخدمته، أو كاره لها يأتي بها على السآمة والملل.

قال بعض السلف: إني أدخل الصلاة فأحمل هم خروجي منها، ويضيق صدري إذا عرفت أني خارج منها، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "جعلت قرة عيني في الصلاة"، ومن كانت قرة عينه في شيء فإنه يود أن لا يفارقه ولا يخرج، وقال آخر: إني لأفرح بالليل حين يقبل، لما يلتذ به عيشي وتقر به عيني من مناجاة من أحب، وخلوتي بخدمته والتذلل بين يديه، وأغتم للفجر إذا طلع، لما اشتغل به بالنهار عن ذلك.

وقال بعضهم: تعذبت بالصلاة عشرين سنة، ثم تنعمت بها عشرين سنة، وقال آخر: سقت نفسي إلى الله وهي تبكي، فما زلت أسوقها حتى انساقت إليه وهي تضحك، فلا يزال السالك عرضة للآفات والفتور والانتكاس حتى يصل إلى هذه الحالة، فحينئذ يصير نعيمه في سيره ولذته في اجتهاده وعذابه في فتوره ووقوفه وتوانيه، فترى أشد الأشياء عليه ضياع شيء من وقته ووقوفه عن سيره، ولا سبيل إلى هذا إلا بالحب المزعج الذي يلح على صاحبه في خدمة من يحب ولا يفتر أبدا، حتى إذا توقف أو أذنب رأى ذلك كبيرة وتذكر ربه فأحدث توبة وإنابة رفعته دراجات قد لا يصل إليها بسعيه وعمله.



والمحب يرى في محبوبه عوضا عن كل شيء، ولا يرى في شيء غيره عوضا منه أصلا، فكل مصيبة عنده هينة إذا أبقت عليه محبوبه، ولهذا لما خرجت تلك المرأة الأنصارية يوم أحد تنظر ما فعل برسول الله صلى الله عليه وسلم مرت بأبيها وأخيها مقتولين، فلم تقف عندهما، وجاوزتهما تقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقيل لها: ها هو ذا حي، فلما نظرت إليه قالت: ما أبالي إذا سلمت هلك من هلك.

ولو لم يكن في المحبة من الفوائد إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها شرفا، فإن المصائب لازمة للعبد لا محيد له عنها، ولا يمكن دفعها بمثل المحبة، وهكذا مصائب الموت وما بعدها إنما تسهل وتهون بالمحبة، وكذلك مصائب القبر والقيامة، وأعظم المصائب مصيبة النار ولا يدفعها إلا محبة الله وحده ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالمحبة أصل كل خير في الدنيا والآخرة، كما قال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المرء مع من أحب"؛ فهم مع الله تعالى.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا"، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذا أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار"، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من كان فيه هذه الثلاث وجد حلاوة الإيمان، لأن وجد الحلاوة بالشيء يتبع المحبة له؛ فمن أحب شيئا أو اشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك.

فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه؛ فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب، فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله والصالحين من عباد الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره، وقد قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} [المائدة: 54]، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ} [آل عمران: 31]، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا





وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24].

فقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول والجهاد في سبيل الله، وذلك لأن الجهاد هو: حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان.

بل قد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"، وفي الصحيح أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال: "لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك" فقال: فوالله لأنت أحب إلي من نفسي فقال: "الآن يا عمر".

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب؛ وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان، ويحب المؤمنين والمتقين، ويبغض الكافرين والفاسقين، وعندئذ يجد حلاوة الإيمان ويذوق طعمه، فلا يقدر بعدها على الاستغناء عنها، مما يجعله يلازم الطاعة وأهلها والجهاد وأهله؛ فيرتقي ويرتقي حتى يلقى ربه ومحبوبه الذي لا يقدر أن يستغني عنه لحظة أبدا.

فإن المحب المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا أسر ولا أنعم من حلاوة الإيمان؛ المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله خائفا منه راغبا راهبا، كما قال تعالى: {مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ} [ق: 33].

وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه فأحيى قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله فإن فيه طلبا وإرادة وحبا مطلقا، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لها، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل ويعادي من يذمه ولو بالحق، وتارة يستعبده الدرهم





والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع ما يهوى بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصا لله عبدا له، قد صار قلبه معبدا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلا له خاضعا، وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين، فكان من الغاوين إخوان الرجيم اللعين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله رب العالمين.

من عُيُوب النَّفس الكسل:

وَمن عيوبها الكسل وَهُوَ مِيرَاث الشِّبَع، فَإِن النَّفس إِذا شبعت قويت، فَإِذا قويت أخذت بحظها وغلبت الْقلب بوصلها إِلَى حظها، ومداواتها التجويع، فَإِنَّهَا إِذا جاعت عدمت حظها وضعفت فغلب عَلَيْهَا الْقلب، فَإِذا غلب عَلَيْهَا حملهَا على الطَّاعَة وَأسْقط عَنْهَا الكسل، وَلذَلِك قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "مَا مَلأ ابْن آدم وعَاء شرا من بَطْنه بِحَسب ابْن آدم لقيمات يقمن صلبه فَإِن كَانَ ولابد ثلث للطعام وَثلث للشراب وَثلث للنَّفس".

والعجز والكسل قرينان: فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح، إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل، وقد يغلط العبد ويظن عجزه وكسله زهدا مأجورا عليه، وإنما هو بطالة وراحة أعاقته عن طلب الآخرة والعمل الصالح والعلم النافع، وعما يصلح له في دنياه، فهو لا يعمر الدنيا ولا الآخرة، كما قال عبد الله بن مسعود: "إني لأكره أن أرى الرجل بطالا ليس في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة".

ثم إنه ليس للعبد شيء أنفع من الصدق مع الله تعالى في جميع أموره، ولابد معه من صدق العزيمة فيصدقه في عزمه وفي فعله، وثمة الخير والسعادة، قال تعالى: {فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ} [محمد: 21]، وصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها ولا التلوم، وصدق الفعل استفراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور والتواني، ومن صدق الله تعالى في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره.



يا نفس السوء لك منشط وهمة في كل بطالة وشر؛ ولك عجز وكسل وفتور في كل طاعة وخير، كيف تزاحمين أهل العزائم بمناكب العجز والكسل، هيهات ما وصل القوم إلى المترل إلا بعد مواصلة السرى، ولا عبروا إلى مقر الراحة إلا على جسر التعب.

ولكن تحكمت أخلاط الشهوات في أعضاء الكسل، فثبطت عن الحركة، فتولدت الأمراض المختلفة، ومن نام على فراش الكسل أصبح ملقى ببوادي الأسف، ومن أدلج في غياهب الليل على نجائب الصبر صبح مترل السرور، واعلم أن العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة، والجهل والبطالة توأمان أمهما إيثار الكسل.

لو صدق عزمك قذفتك ديار الكسل إلى بيداء الطلب، فإذا جن الليل وقعت الحرب بين النوم والسهر وحمى وطيسها، فكان الشوق والخوف في مقدمة عسكر اليقظة، وصار العجز والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل الغريم حملة صادقة هزم جنود الفتور والنوم والراحة، فحصل الظفر والغنيمة، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان، وما عند النائمين خبر.

قام المتهجدون على أقدام الجد تحت ستر الدجى يبكون على زمن ضاع في غير الوصال، ما زالت مطايا السهر تذرع بيداء الدجى وعيون آمالها لا ترى إلا المترل وحادي العزم يقول:

يا رفقة الليل طاب السير فاغتنموا...

...المسرى فمن نام طول الليل لم يصل

إلى أن هب نسيم السحر، فقام الصادق يبغي ظلام الليل، فلما هم بالرحيل تشبث القوم بأذياله يبكون على فراق المحبوب، فلما طلع الفجر حدا حاديهم: عند الصباح يحمد القوم السرى.

فيا أيها العاقل جنب نفسك الكسل والبطالة والدعة والراحة، وخذها بأضدادها، ووطنها على الاستجمام بالجد والشغل، فإن للكسل والبطالة عواقب سوء ومغبة ندم، وللجد والتعب عواقب حميدة، إما في الدنيا وإما في العقبى وإما فيهما، فأروح الناس أتعب الناس، وأتعب الناس أروح الناس، فالسيادة في الدنيا والسعادة في العقبى لا يوصل إليها إلا على جسر من التعب والكد، قال يحيى بن أبي كثير: لا ينال العلم براحة الجسم.

ووطن نفسك على فعل الطاعة وترك المعصية والصبر عليهما، وذلك نتاج العلم والإيمان، فإن من باشر قلبه الإيمان بقيام الله عليه ورؤيته له، وتحريمه لما حرم عليه، وبغضه له، ومقته لفاعله، وإيجابه لما أوجبه عليه، وحبه له، ورضاه عن فاعله، وباشر قلبه الإيمان بالبعث والثواب والعقاب والجنة والنار، امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم، فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه، وتركه للمعصية بحسبه، فكان كسله ونشاطه بحسب ذلك.

وعود نفسك الانتباه آخر الليل، فإنه وقت قسم الغنائم وتفريق الجوائز، فمستقل ومستكثر ومحروم، فمتى اعتادت ذلك في أول الأمر سهل عليها في آخره، وجنبها فضول الطعام والكلام والمنام ومخالطة الأنام، فإن الخسارة في هذه الفضلات، وهي تفوت على العبد خير دنياه وآخرته، وجنبها مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج غاية التجنب، فإن كان ولابد فاليسير منها قدر الحاجة، فإن تمكينها من أسبابها والفسح له فيها والاستغراق يفسدها فسادا يعز عليك بعده صلاحها، فإنها تطلب لها مصرفا فيضيق عليها المباح فتتعداه إلى الحرام، ثم إنها لا تقعد فارغة بطالة البتة، بل إن لم يشغلها صاحبها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد، فكم ممن أشقى نفسه التي بين جنبيه في الدنيا والآخرة بإهمالها وترك تأديبها وإعانتها على شهواتها وتركها في بيداء الخمول والكسل، ويزعم أنه يكرمها وقد أهانها، وأنه يرحمها ويشفق عليها وقد ظلمها وحرمها، ففاته خير الدنيا من مناجاة الرب والتودد إليه والتقرب منه؛ وخير الآخرة من التنعم في جناته والتلذذ بالنظر إلى وجهه الكريم، فيا له من حرمان ويا لها من خسارة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

من عُيُوب النَّفس طلب الرِّئَاسَة بِالْعلمِ والتكبر:

وَمن عيوبها طلب الرِّئَاسَة بِالْعلمِ والتكبر والافتخار بِهِ والمباهاة على أَبنَاء جنسه والجدال وإفحام الخصوم، ومداواتها رُؤْيَة منَّة الله عَلَيْهِ فِي أَن جعله وعَاء لأحكامه وفضله على كثير من خلقه ووهبه أعظم وأفضل رزق، ورؤية تَقْصِير شكره على نعْمَة الله عَلَيْهِ بِالْعلمِ وَالْحكمَة، والتزام التَّوَاضُع والذل والانكسار، والشفقة على الْخلق والنصيحة لَهُم والاعتذار لزلاتهم، فَإِنَّهُ روى عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَنه قَالَ: "من طلب الْعلم ليباهي بِهِ الْعلمَاء أَو ليماري بِهِ السُّفَهَاء أَو ليصرف بِهِ وُجُوه النَّاس إِلَيْهِ فَليَتَبَوَّأ مَقْعَده فِي النَّار"، وَلذَلِك قَالَ بعض السّلف: من ازْدَادَ علما فليزدد خشيَة فَإِن الله تَعَالَى يَقُول: {إِنَّمَا يخْشَى الله من عباده الْعلمَاء}، وَقَالَ رجل



لِلشَّعْبِيِّ: أَيهَا الْعَالم فَقَالَ: إِنَّمَا الْعَالم من يَخْشَى الله، وقال تعالى: {جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه}؛ وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بخشية الله علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا.

فالعلماء الذين يطلبون الرياسة، ويتكبرون ويباهون ويمارون قد تركوا المهم من العلوم، وربما ضيعوا علوم الأعمال الظاهرة والباطنة، ولم يتفقدوا الجوارح، ولم يحرسوا اللسان من الغيبة، والبطن عن الحرام، والرجل عن السعي إلى حيث لا يحب الله تعالى ولا يرضى، ولم يحرسوا قلوبه عن الكبر والرياء والحسد، وسائر المهلكات، فهم مغرورون من وجهين:

أحدهما: اشتغالهم بتزكية الناس والنصح لهم عن تزكية نفوسهم والنصح لها، وإنما غرهم تعظيم الخلق لهم وإكرامهم ورجوع أحدهم شيخا ومفتيا وعلامة لا يشق له غبار، ونحوها من كلمات المدح والثناء التي تعبدهم بها العامة والجهال وهي لا تغني من الحق شيئا، فتراهم يطعن كل واحد في صاحبه، فإذا أسقطه ظن أنه ارتفع جاهه وعلت مترلته، بل فيهم من النفاق ما لو اجتمعوا لزال الطعن وكثرت كلمات المدح والثناء.

والثاني: من حيث العلم، وذلك لظنهم أن ما عندهم هو العلم وما سواه ليس بعلم، فالمجادل لا يعتد إلا بجدله وجداله، وصاحب المذهب لا يقر إلا بمذهبه، وصاحب الطريقة ينفي ما عداها، فكل يعمل على شاكلته، ولا يقر لخصمه بما معه من حق، بل يرد حقه وباطله، ولا يهمه إلا الإلزام، وإفحام الخصم، ودفع الحق لأجل المباهاة، وهو طول الليل والنهار في التفتيش في مناقضات الخصوم، والتفقد لعيوب الأقران وتتبع العورات، فيحتكر الحق والحقيقة على طائفته ورسمه وشيخه ومذهبه، فلا علم إلا ما سموه علما، ويظنون أنه المنجي الموصل، وهؤلاء لم يقصدوا الله تعالى، وإنما المنجي الموصل حب الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يتصور حب الله تعالى إلا بمعرفته وتقديره حق قدره، ولا يتصور حب الرسول إلا باتباعه، قال عز وجل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31].

والعالم الحق هو من خشي الله تعالى حق خشيته ولم يخش سواه، فتعقله هذه الخشية بإذن الله تعالى عما لا ينبغي من الأقوال والأفعال والأحوال، فلا يجرؤ أن يحرك لسانه بكلمة من المنكرات كالغيبة والنميمة والكذب والقذف والفسق والسخرية والاستهزاء والازدراء ونحو ذلك، ولا يستعمل جوارحه فيما حرم الله تعالى، ولا ينطوي على رذيلة كالكبر والحقد والحسد





وسوء الظن والعجب والرياء وغير ذلك من الرذائل، فلا يستريح حتى يكون باطنه كظاهره، مطهرا من كل سوء وفحشاء، ولا يرى إلا محتسبا صابرا متوكلا على الله تعالى، لا ييأس ولا يقنط، ولا يؤمن نفسه من عذاب الله سبحانه، وهو على الدوام في غموم ثلاث: غم الطاعة أن لا تقبل، وغم المعصية أن لا تغفر، وغم المعرفة أن تسلب، فهو بمعرفته بالله تعالى حق المعرفة وخشيته له حق الخشية يحسب أنفاسه على نفسه؛ فلا يرى إلا في شغل دائم بربه وإلهه عن نفسه وعن جميع الخلق.

وفي صحيح مسلم قال صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، وقال: "الكبر بطر الحق وغمط الناس"، وهو ذنب إبليس الذي آل أمره إلى ما آل إليه من اللعن والطرد، والذي حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، فكان التكبر شر من الشرك، إذ يحمل صاحبه على التكبر على عبادة الله تعالى ودفع الحق ورده، بينما المشرك يعبد مع الله غيره، قال تعالى: {ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [غافر: 76]، {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ} [النحل: 29]، {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} [الزمر: 60]، وأخبر أن أهل الكبر والتجبر هم الذين طبع الله على قلوبهم، فقال تعالى: {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر: 35].

وكما أن من تواضع لله رفعه، فكذلك من تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه، وصغره وحقره، ومن تكبر عن الانقياد للحق -ولو جاءه على يد صغير، أو من يبغضه أو يعاديه- فإنما تكبره على الله تعالى؛ فإن الله هو الحق، وكلامه حق، ودينه حق، والحق صفته، ومنه وله، فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله: فإنما رد على الله، وتكبر عليه، والله أعلم.

وبطر الحق: رده وجحده، والدفع في صدره، كدفع الصائل، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم، وجحدها، واستهان بها، فكان الكبر والمتكبر بهذا مذموما غاية الذم، ولكن الواجب هو التواضع لله وللناس، وحقيقته: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها، فلا يقابلها بصولته عليها وتكبره على الحق.

والتواضع ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: التواضع للدين، وهو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستسلام له، والإذعان، فلا يعارض الدليل الصحيح بمعقول أو قياس أو ذوق ووجد أو سياسة.



فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل، وعزلنا النقل، إما عزل تفويض، وإما عزل تأويل.

والثاني: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد، فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قدموا الذوق والحال والوجد، ولم يعبأوا بالأمر.

والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الظلمة، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة، قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر، والتواضع هو التخلص من ذلك كله.

ثم لا يتهم دليلا من أدلة الدين، بحيث يظنه فاسد الدلالة، أو ناقص الدلالة، أو قاصرها، أو أن غيره من سياسات الناس وتشريعاتهم الوضعية كان أولى منه، ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه وعقله، وليعلم أن الآفة منه، والبلية فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك، وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأن تحته كنزا من كنوز العلم، ولم تؤت مفتاحه بعد، هذا في حق نفسك، وأما بالنسبة إلى غيرك: فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي، وليكن ردها أيسر شيء عليك من ردك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء، وقد قال الشافعي، قدس الله روحه: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

ثم على العبد أن لا يجد إلى خلاف النص سبيلا البتة؛ لا بباطنه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله، ومن وجد ذلك فليتهم نفسه، فإن بابا من أبواب النفاق العظيمة قد فتح عليه، فليتعوذ بالله منه، وليستعن بالله على ملازمة النص ما أمكنه ذلك.

فإذا كان المخالف للنص -لقول متبوعه وشيخه ومقلده، أو لرأيه ومعقوله، وذوقه، وسياسته؛ إن كان عند الله معذورا، ولا أظنه بمعذور- فاعلم أن المخالف لقوله من أجل نصوص الوحي أولى بالعذر عند الله ورسوله، وملائكته، والمؤمنين من عباده.

فواعجبا إذا اتسع بطلان المخالفين للنصوص لعذر من خالفها تقليدا، أو تأويلا، أو لغير ذلك، فكيف ضاق عن عذر من خالف أقوالهم، وأقوال شيوخهم وطوائفهم لأجل موافقة النصوص؟ وكيف نصبوا له الحبائل، وبغوه الغوائل، ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالا من أرباب الجرائم؟ فرموه بدائهم وانسلوا منه لواذا، وقذفوه بمصابهم، وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذا لهم ومعاذا، والله المستعان.

الدرجة الثانية: أن ترضى بما رضي الحق به لنفسه عبدا من المسلمين أخا؛ فرفضك لأخوة من رضيه سيدك عبدا هو عين الكبر، وأن لا ترد على عدوك حقا؛ فالواجب أن تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، وأن تؤدي الحق لمن تحب ولمن تبغض، فلا تمنعك عداوة من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه، وأن تقبل من المعتذر معاذيره؛ فتقبل ممن أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته، حقا كانت أو باطلا، وتكل سريرته إلى الله تعالى، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو؛ قبل أعذارهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

الدرجة الثالثة: أن تعبد الله تعالى بما أمرك به، على مقتضى أمره، لا على ما تراه من رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة والهوى، وإنما امتثال الأمر وطاعة الآمر، ثم لا ترى لنفسك حقا على الله لأجل عملك وعبوديتك وذلك وانكسارك، فمتى رأيت لنفسك على الله حقا فسدت عليك، وصارت معلولة وخيف منها المقت، ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه من إثابة عابديه وإكرامهم، فإن ذلك حق أحقه على نفسه بمحض كرمه وبره وجوده وإحسانه، لا باستحقاق العبيد، وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم، قال عليه الصلاة والسلام: "لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله" قالوا: ولا أنت؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل"، والله أعلم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، يا معاذ،



أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه: أن لا يعذبهم بالنار".

فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق، ولا يضيع لديه سعي؛ كما قيل:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

اللهم ألهمنا ذكرك وشكرك وارزقنا الاستقامة طوع أمرك وتفضل علينا بعافيتك وجزيل عفوك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وألهمنا اللهم القيام بحقك وبارك لنا في الحلال من رزقك وفيما آتيتنا من فضلك، ولا تفضحنا بين خلقك، يا خير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج، وأذقنا اللهم برد عفوك وحلاوة مغفرتك وحسن الإنابة إليك، يا أرحم الراحمين.

من عُيُوب النَّفس كَثْرَة الْكَلَام:

وَمن عيوها كَثْرَة الْكَلَام، وَإِنَّمَا يتوَلَّد ذَلِك من شَيْئَيْنِ: إما طلبه رئاسة يُريد أن يرى النَّاس علمه وفصاحته، وإما قلَّة الْعلم بِمَا يجلب عَلَيْهِ الْكَلَام، ومداواها علمه ويقينه بأن عليه حفظة كراما كاتبين؛ لا تفوهم صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وكتبوها في سجله، وتَحْقِيقه بِأَنَّهُ مَأْخُوذ بِمَا يتَكَلَّم بِهِ، وأنه معروض عليه ومسئول عَنهُ، لِأَن الله تَعَالَى يَقُول: {وَإِن عَلَيْكُم لحافظين كراما كاتبين}، وَقَالَ تَعَالَى: {مَا يلفظ من قَول إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيب عتيد}، وَقَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "الْبَلَاء مُوكل بِالْمَنْطق"، وَقَالَ: "وَهل يكب النَّاس على مناخرهم إِلَّا حصائد ألسنتهم"، وَقَالَ عَلَيْهِ الصلاة والسَّلَام: "كَلَام ابْن آدم عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا مَا أمر بِمَعْرُوف أَو نهى عَن مُنكر"، وقَالَ الله تَعَالَى: {لَا خير فِي كثير من نَجواهُمْ إِلَّا من أَمر بِصَدَقَة أَو مَعْرُوف أَو إصْلَاح بَين النَّاس}.

فالعاقل من يبصر مواقع الكلام ويحفظ لسانه من الفضول والهذيان، قال صلى الله عليه وسلم: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت"، فالصمت جنة ووقاية ما لم يكن في باطل، ذلك أن زلات اللسان عظيمة وخطبها جسيم، فزلة واحدة قد تؤدي بالإنسان إلى الهلاك والعطب ومفارقة أهله وولده وأصدقائه وجيرانه، هذا في الدنيا، أما الآخرة فقد توبقه وتكبه على منخريه في جهنم، فليحذر الإنسان مما يجري به لسانه.





قال صلى الله عليه وسلم: "لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه"، وعن سعيد بن جبير مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تذكر اللسان أي تقول: اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا"، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له: ما تصنع يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا أوردني الموارد، وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول: يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم.

فخطر اللسان عظيم ليس كغيره من الأعضاء؛ فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، واللسان يجول في كل شيء وبه يبين الإيمان وتوابعه من الكفر وتوابعه، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب"، وأخرج الترمذي ولفظه: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الشر ما يعلم مبلغها يكتب الله له بها عليه سخطه إلى يوم القيامة".

فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا، وحكاية كلام الناس والطعن على من يبغضه ومدح من يحبه ونحو ذلك، والنفس تستعذب هذه الفاكهة وتلتذ بها، فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ: "أمسك عليك لسانك"، فقال: وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصاد ألسنتهم".

ولاسيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد، فإنه يعز عليه الصبر عنها، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة؛ ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق.

كما أن اللسان قد يشتغل بالتكلم بما لا ينفع فلا يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل، وكلامه في غير الحق وإن لم يكن في حرام فهو باطل وأوقات ضائعة يندم عليها يوم القيامة؛ ولو لم توبقه، لكنها لم تنفعه بل أخرته.

والمقصود أن الشيطان لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختيار أفسده عليه.





وصية إبليس لجنوده بملازمة ثغر اللسان:

ثم يقول هذا اللعين لجنوده: قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه، من ذكر الله تعالى، واستغفاره، وتلاوة كتابه ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع، واعلموا أن في هذا الثغر أمران عظيمان، فلا تبالوا بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق، فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم،

أما سمعتم قول الناصح: "المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس".

يا جند إبليس الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل في كل حال وعلى كل سبيل، وخوفوه من التكلم بالحق بكل وسيلة وعلى كل طريق، واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم، وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعوانا على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد حتى تصيبوا حاجتي منهم أو بعضها، فقد أقسمت به لربهم وقلت: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}.

وقد حذرهم ذلك رسولهم وقال لهم: إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، وقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك، فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتنكح الزوجة.





فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتخرج المال فتبقى مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته أنت وهو سواء، أو ما سمعتم ما ألقيت على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتها.

ثم أقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين بني آدم، وزينوها في قلوبهم، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه، وهكذا سائر الثغور؛ اسقوا فيها بذرة الشر وأميتوا فيها بذرة الخير.

ولو رحنا نسوق حيل الشيطان ومكره لطال المقام، ولكن الغرض التنبيه على رباطه على ثغر اللسان، واجتهاده فيه لتحصيل ما أمكنه من الشر وهلاك الإنسان، وليكن دستورك أيها المؤمن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أنها تبلغ ما بلغت، يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة".

الرِّضَا عِنْد الْمَدْح وَالْغَضَب عِنْد الذَّم:

وَمن عيوبها أَنَّهَا إذا رضيت مدحت الراضي عَنهُ فَوق الْحَد وَإِذا غضِبت ذمَّته وتجاوزت الْحَد، ومداواتها رياضة النَّفس على الصدْق وَالْحق حَتَّى لَا تتعدى فِي مدح من رضي عَنهُ وَلَا فِي ذمّ من سخط عَلَيْهِ فَإِن أَكثر ذَلِك من قلَّة المبالاة بالأوامر والنواهي.

والواجب قبول الحق ممن قاله وإن كان بغيضا، بل ومدحه عليه، ورد الباطل على من قاله وإن كان حبيبا، بل وذمه عليه، ولا يخرجها البغض إلى ذم المحق الناطق بالحق، ولا الحب إلى مدح المبطل الناطق بالباطل، والواجب على النفس أن تروض على أن يكون مصدر كلامها عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولإخوانه المسلمين، وإن جعلت الحق تبعا للهوى فسد القلب والعمل والحال والطريق، قال الله تعالى: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ





السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} [المؤمنون: 71]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به"؛ فالعلم والعدل أصل كل خير، والظلم والجهل أصل كل شر.

واتق كثرة التزكية لنفسك، أو ترضى بها من أحد يقولها لك في وجهك، أما علمت أن رجلا امتدح رجلا عند النبي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فقال: "ويحك قطعت عنقه، ولو سمعها ما أفلح أبدا"، وإياك ومدح الناس والثناء عليهم في وجوههم، فإن النَّبِيّ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول: "أحثوا فِي وُجُوه المادحين التُّرَاب"، وكان يقول: "إن كان أحدكم مادحا لا محالة فليقل أحسبه كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحدا".

والمقصود النهي عن اتخاذ المدح عادة فإنه مدرجة إلى الكذب، والمسلم يجب أن يكون نبيها حذرا يثني على غيره فلا يذكر إلا ما يعلم من خير، فيمدح على الأمر الحسن والفعل الجميل ترغيبا وتنشيطا وتحريضا للناس على الإقتداء به، ولا يجنح إلى المبالغة في المدح، فمهما كان الممدوح جديرا بالثناء فإن المبالغة في مدحه ضرب من الكذب، على أن الممدوح إن كان رزين العقل انتقد المتجاوز للحد في مدحه.

وهذا الشافعي لا يحب الرياء والشهرة وطلب المدح والثناء، ويقول: أرى الغر في الدنيا إذا قيل فاضل ...

... ترقى على رؤوس الرجال ويخطب

وإن كان مثلي لا فضيلة عنده ...

... يقاس بطفل في الشوارع يلعب

وأما الثناء من الإنسان على نفسه فشناعة وفظاعة، وقد قيل لحكيم: ما الذي لا يحسن وإن كان حقا؟ فقال: مدح الرجل نفسه، وقال معاوية رضي الله عنه لرجل: من سيد قومك؟ فقال: أنا، فقال: لو كنته لما قلته.

وربما آل حب المدح بصاحبه إلى أن يصير ديدانه مدح نفسه؛ إما لتوهمه أن الناس غفلوا عن فضله وأخلوا بحقه من المدح فتسوقه المنافسة إلى مدح نفسه وفتح باب الاستهزاء عليه؛ وإما ليخدعهم بتدليس نفسه بالمدح والإطراء فيعتقد الجهال أن قوله حق متبع وصدق مستمع؛ وإما



لتلذذه بسماع الثناء وسرور نفسه بالمدح؛ ولأي واحد من الثلاثة كان مدح النفس فهو الجهل الصريح؛ والنقص الفضيح، والكبر القبيح، لأنه ناشئ عن عقل فاسد.

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق، الذين هم أصفياء القلوب، الذين يثق بدينهم وأمانتهم، فهم مرايا المحاسن والعيوب، لينبهوه على مساويه التي صرفه حسن الظن بنفسه عنها، فإنهم أمكن نظرا وأسلم فكرا، ويجعلون ما ينبهونه عليه من مساويه عوضا عن تصديقه المدح فيه.

وقد روى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "المؤمن مرآة المؤمن، إذا رأى فيه عيبا أصلحه"، وكان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأ أهدى إلينا مساوينا لنصلحها، وقيل لبعض الحكماء: أتحب أن تهدى إليك عيوبك؟ قال: نعم ممن يريد براءتي من العيوب لا من عدو يشمت بالذنوب.

وأما قول يوسف عليه السلام: {اجعلني على خزآئن الأرض}، فلأنه قصد بذلك التنبيه على استقلاله بما سأل أن يفوض إليه لمصلحة لا يقوم بها غيره، وهي العلم بجميع الجهات المتعلقة بهذه الخزائن من حسن الاستخراج وحسن التصرف وإقامة العدل الكامل مع الحفظ التام لذلك، فهو لما رأى الملك استخلصه لذلك وجعله مقدما عليه وفي المحل العالي وجب عليه النصيحة التامة للملك والرعية.

وأما طلب ما يحصل به الثناء من وجه يستحب فذلك محمود، وهو طريق إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال: {وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}؛ أي: اجعلني بحيث أفعل ما إذا مدحت به يكون مادحي صادقا، ولذلك ينبغي للإنسان إذا أثني عليه أن يقول: اللهم اجعلني خيرا مما يظنون، ويكثر من حمد الله وشكره.

من عيوب النفس السخط على المقدور بعد الاستخارة:

وَمن عيوبها أَنَّهَا تستخير الله تَعَالَى فِي أفعالها ثمَّ تسخط فِيمَا يخْتَار لَهَا، ومداواتها أن يعلم أنه يعلم من الْأَشْيَاء ظواهرها وَالله يعلم علنها وباطنها على سَوَاء، فَإِن حسن اخْتِيَار الله لَهُ خير من اخْتِيَاره لنَفسِهِ، وَيعلم أن الله هو الْمُدبر له لَا مُدبر سواهُ، وأن سخطه للْقَضَاء لَا يُغير من المقضي شيء، فَيلْزم نَفسه طَرِيق الرِّضَا بِالْقَضَاءِ ويستريح من كَثْرَة التَّمَنِّي.



ولما كنت أيها العبد الفقير غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي، فغيرك من الناس أولى ألا يكون عالما بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدا لها، والله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم، كما في حديث الاستخارة: "اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب".

فقد صح في البخاري عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا هم أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاقدره لي، ويسره لي، وبارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شرا لي في ديني ومعاشي، وعاجل أمري وآجله، فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به" قال: "ويسمي حاجته".

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه، والتبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كله بيد وليه وفاطره وإلهه الحق.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله".

فتأمل كيف وقع المقدور مكتنفا بأمرين: التوكل الذي هو مضمون الاستخارة قبله، والرضا بما يقضي الله له بعده، وهما علامة السعادة، وعلامة الشقاء أن يكتنفه ترك التوكل والاستخارة قبله، والسخط بعده، فالعبد يتوكل قبل القضاء، ويستخير الله تعالى في أموره كلها، فإذا أبرم القضاء وتم، انتقلت العبودية إلى الرضا بعده، كما ورد في الدعاء المشهور: "وأسألك الرضا بعد القضاء".

والمقصود أن الاستخارة توكل على الله وتفويض إليه واستقسام بقدرته وعلمه، وحسن اختياره لعبده، وهي من لوازم الرضا به ربا، الذي لا يذوق طعم الإيمان من لم يكن كذلك، وإن رضي بالمقدور بعدها، فذلك علامة سعادته.





والرضا من أعظم ثمرات التوكل وفوائده، فإنه إذا توكل العبد حق التوكل على الله تعالى رضي بما يفعله وكيله، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية، وهذا معنى قول بشر الحافي: (يقول أحدهم: توكلت على الله، يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به)، وقول يحيى بن معاذ وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلا؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلا.

وَمن عيوبها كَثْرَة التَّمَنِّي:

وَالتَّمَنِّي هُوَ الِاعْتِرَاض على الله تَعَالَى فِي قَضَائِهِ وَقدره، ومداواتها أَن يعلم أنه لَا يدْرِي مَا يعقب التَّمَنِّي أيجره إِلَى خير أم شَرّ، إِلَى مَا يرضيه أو إِلَى مَا يسخطه، فَإِذا أَيقَن اتهام عَاقِبَة تمنيه أسقط عَن نَفسه ذَلِك وَرجع إِلَى الرِّضَا وَالتَّسْلِيم فيستريح، وَلذَلِك قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "لَا يتمنين أحدكُم الْمَوْت لضر نزل بِهِ وَليقل اللَّهُمَّ أحيني مَا كَانَت الْحَيَاة خيرا لي وتوفني إِذا كَانَت الْوَفَاة خيرا لي"، وَلذَلِك قَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "إِذا تمنى أحدكُم فَلْينْظر مَا يتَمَنَّى فَإِنَّهُ لَا يدْرِي مَا يكْتب لَهُ من أمْنِيته".

وكما قيل: إن التمني رأس أموال المفاليس، فهو من مواعيد الشيطان الذي لا يعد إلا الغرور، وخيالات المحال والبهتان، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهبية، وكل بحسب حاله من متمن للقدرة والسلطان، وللسياحة والنسوان، وللغناء والأفلام، وللأموال والأثمان، ولا يهم وسيلة تحصيلها، وأما ذو الهمة العلية فأمانيه حائمة حول العلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خدع وغرور.

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم متمني الخير، وربما جعل أجره في بعض الأشياء كأجر فاعله، ففي حديث كبشة الأنماري الذي أخرجه أحمد والترمذي وصححه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما الدنيا لأربعة: رجل آتاه الله مالاً وعلمًا، فهو يتَّقي في ذلك المال ربَّه ويَصلُ فيهِ رَحِمَه، فهذا بأشرف المنازل؛ ورجل آتاه الله علمًا ولم يُؤته مالاً، فيقول: لو أنَّ لي مالاً لعَمِلتُ فيه بعَمَلِ فلانٍ؛ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فهما في الأجر سواء؛ ورجل آتاه الله مالاً ولم يُؤته علمًا، فهو لا يتقي في ذلك المال ربَّه ولا يَصِل فيه رَحِمَه، فهذا بأخبث





المنازل؛ ورجل لم يُؤته الله مالاً ولا علمًا، فيقول: لو أنّ لي مالاً لعمِلتُ مثل عملِ فلان؛ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فوِزْرُهما سواءٌ".

وتمنى النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أنه لو كان تمتع وحل و لم يسق الهدي، وكان قد قرن، فأعطاه الله ثواب القران بفعله، وثواب التمتع الذي تمناه بأمنيته، فجمع له بين الأجرين.

الْخَوْض فِي أَسبَاب الدُّنْيَا:

وَمن عيوبها محبتها الْخَوْض فِي أَسبَاب الدُّنْيَا وحديثها، ومداواتها الِاشْتِغَال بالفكر الدَّائِم فِي كل أوقاته؛ فيما يعنيه من دينه وفيما يعنيه من دنياه لآخرته، فيشْغلهُ ذَلِك عَن ذكر الدُّنْيَا وَأَهْلهَا والخوض فِيمَا هم فِيهِ؛ وَيعلم أَن ذَلِك مِمَّا لَا يعنيه فيتركه، لِأَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول: (من حسن إِسْلَام الْمَرْء تَركه مَالا يعنيه).

وَمن عيوبها إِظْهَار طاعاتها ومحبة أَن يعلم النَّاس مِنْهُ ذَلِك أَو يروه متزين بذلك عِنْدهم، ومداواتها أَن يعلم أَنه لَيْسَ إِلَى الْخلق نَفعه وَلَا ضره، ويجتهد فِي مُطَالبَة نَفسه بالإخلاص فِي أَعماله ليزيل عَنهُ هَذَا الْعَيْب، فَإِن الله تَعَالَى يَقُول: {وَمَا أمروا إِلَّا ليعبدوا الله مُخلصين لَهُ الدّين حنفَاء}، وَالنَّبِيّ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول حاكيا عَن ربه عز وَجل أَنه قَالَ: (من عمل عملا أشرك فِيهِ غَيْرِي فَأَنا مِنْهُ برِئ وَهُوَ لِلَّذي أشرك).

من عُيُوب النَّفس الطمع:

وَمن عيوبها الطمع، ومداواتها أَن يعلم العبد أن طمعه فيما سوى الله تعالى يدْخلهُ فِي الرِّيَاء والتصنع للناس، وينسيه حلاوة الْعِبَادَة، ويصيره عبد العبيد بعد أَن جعله الله حرا من عبوديتهم، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطي رضي وإن منع سخط".

فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الدرهم وعبد الدينار وعبد القطيفة وعبد الخميصة وذكر ما فيه دعاء وخبرا وهو قوله: "تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش" والنقش إخراج الشوكة من الرجل والمنقاش ما يخرج به الشوكة.



وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه و لم يفلح لكونه تعس وانتكس فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه وهذه حال من عبد المال وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإن منع سخط كما قال تعالى [58 التوبة] : {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون} فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة أو منصب أو امرأة - ونحو ذلك من أهواء نفسه - إن حصل له رضي وإن لم يحصل له سخط؛ فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ حقيقة الرق والعبودية هي رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده.

ولهذا يقال: العبد حر ما قنع ... والحر عبد ما طمع

وقال الشاعر:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... ولو أني قنعت لكنت حرا

ويقال: الطمع غل في العنق قيد في الرجل، فإذا زال الغل من العنق زال القيد من الرجل.

ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الطمع فقر واليأس غنى وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه.

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع فيه ولا يبقى قلبه فقيرا إليه ولا إلى من يفعله، وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه فإن قلبه يتعلق به فيصير فقيرا إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله، وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك؛ وهو مشاهد في هذا العصر الذي غلبت عليه المادة؛ لا يراه إلا من أصيب بالعمى.

مثاله طلب الرزق؛ قال الخليل صلى الله عليه وسلم: {فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون} [العنكبوت 17]؛ فالعبد لا بد له من رزق وهو محتاج إلى ذلك؛ فإذا طلب رزقه من الله صار عبدا لله فقيرا إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدا لذلك المخلوق فقيرا إليه، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل وإنما أبيحت للضرورة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "من يستغن يغنه الله ومن يستعف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر".



وأعظم عون للعبد على حريته وعبوديته لله الواحد الأحد بعد الله سبحانه؛ التجرد من الطمع في غيره والفزع إلى سواه، فمتى تجرد العبد منهما هان عليه التحيز إلى الله ورسوله وكان دائما في الجانب الذي فيه الله ورسوله، ومتى قام به الطمع فلا يطمع في هذا الأمر ولا يحدث نفسه به فإنه ليس من أهله، فإن قال: فبأي شيء أستعين على التجرد من الطمع ومن الفزع؟ جوابه: بالتوحيد والإخلاص والتوكل والثقة بالله عز وجل، وعلمك بأنه لا يأتي بالحسنات إلا هو ولا يذهب بالسيآت إلا هو، وأن الأمر كله لله سبحانه ليس لأحد مع الله شيء.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولا فاذبحه بسكين اليأس وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده؛ كما قال ذلك الأعرابي للنبي: إن مدحي زين وذمي شين فقال: ذلك الله عز وجل، فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون} وقال تعالى: {وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون}).

الْحِرْص على عمَارَة الدُّنْيَا:

وَمن عيوبها حرصها على عمَارَة الدُّنْيَا والتكثر مِنْهَا، ومداواتها أَن يعلم أَن الدُّنْيَا لَيست بدار قَرَار، وأن الْآخِرَة دَار مقرّ، والعاقل من يعْمل لدار قراره لَا لمراحل سَفَره، فَإِن المراحل تَنْقَطِع بالْمقَام فِي السّفر، فَيعْمل إِلَى مَا إِلَيْهِ مآبه، قَالَ الله تَعَالَى: {أَنما الْحَيَاة الدُّنْيَا لعب وَلَهو وزينة وتفاخر بَيْنكُم وتكاثر فِي الْأَمْوَال وَالْأَوْلَاد}، وَلِأَن الله تَعَالَى يَقُول: {وَالْآخِرَة خير لمن





اتَّقى}، {وَالدَّار الْآخِرَة خير للَّذين يَتَّقُونَ}، {وَالْآخِرَة عِنْد رَبك لِلْمُتقين}، {وَالْآخِرَة خير وَأبقى}، {وللآخرة خير لَك من الأولى}.

ولكن القلب قد يستولي عليه ما يريده العبد ويحبه وما يخافه ويحذره من أمور الدنيا، فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم؛ كما قال تعالى: {بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}، وقال تعالى: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ}، أي فيما يغمر قلوبهم من حب المال والبنين والشهرة والجاه والسلطان ونحوها من فتن الدنيا وشهواتها؛ المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة.

وقال تعالى: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} {الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ} الآيات، أي ساهون عن أمر الآخرة غافلون عما خلقوا لأجله، فهم في غمرة عنها أي فيما يغمر قلوبهم من حب الدنيا ومتاعها غارقون، وعن أمر الآخرة وما خلقوا له ساهون.

فهذه الغفلة عن الله والدار الآخرة تسد باب الخير الذي هو الذكر واليقظة والاجتهاد في العبادة والتقوى، وأما الشهوة والهوى فإنها تفتح باب الشر والسهو والخوف، فيبقى القلب مغمورا فيما يهواه ويخشاه غافلا عن ربه ومولاه، رائدا غير الله ساهيا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، فانفرط أمره وران حب الدنيا على قلبه؛ كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش إن أعطي رضي وإن منع سخط"، فقد جعله عبد ما يرضيه وجوده، ويسخطه فقده، حتى يكون عبد درهم يلهث وراءه فإذا حصله حرم نفسه نفعه، وعبد قطيفة خلقت ليجلس عليها ولكنه آثر أن يكون خادمها، فكيف إذا استولى على القلب ما هو أعظم استعبادا من الدرهم والقطيفة من الشهوات والأهواء والمحبوبات التي تجذب القلب عن كمال محبته لله وعبادته فتخليه في لا موضع.

وفي هذا المعنى قال الجنيد: (لا يكون العبد عبدا حتى يكون مما سوى الله تعالى حرا)، وهذا مطابق لهذا الحديث فإنه لا يكون عبدا لله خالصا مخلصا دينه لله كله حتى لا يكون عبدا لما سواه ولا فيه شعبة ولا أدنى جزء من عبودية ما سوى الله تعالى، فإذا كان يرضيه ويسخطه غير الله سبحانه فهو عبد لذلك الغير ففيه من الشرك بقدر محبته وسخطه، وعلامته أن ترضيه





الكلمة التي فيها تعظيمه وإن كانت باطلا، وتغضبه الكلمة التي فيها ذمه وإن كانت حقا، والمؤمن حقا من ترضيه كلمة الحق له وعليه، وتغضبه كلمة الباطل له وعليه.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "الفقر تخافون لا أخاف عليكم الفقر، إنما أخاف عليكم الدنيا حتى إن قلب أحدكم إذا زاغ لا يزيغه إلا هي"، وقد قيل: مفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل.



من عيوب النفس استحسانها من نفسها ما تستقبحه من غيرها:

وَمن عيوبها اسْتِحْسَان مَا ترتكبه هي ومن تحبه من الْأُمُور قولا وفعلا؛ واستقباح ذلك من غيرها ممن يُخَالِفها، وهذا من اتباع الهوى الذي يكون في الحب والبغض، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَولَى بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} [النساء: 135]، وقال تعالى: {وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة: 8]، ومداواتها اتهام النَّفس لِأَنَّهَا أَمارَة بالسوء، وَحسن الظَّن بالخلق لانبهام العواقب.

فأما سوء الظن بالنفس فإنما يحتاج إليه؛ لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالا، فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه محاسن.

فعين الرضى عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدي المساويا.

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها وخبرها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه وأغبنهم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه"، وقال بعض العارفين: إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني، الذي يراه الناس، حياء من الله عز وجل، فالمؤمن: يجمع إحسانا في مخافة وسوء ظن بنفسه، والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

ولا تعرف النفس إلا بنور العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر، ويبصر به مراتب الأعمال، راجحها ومرجوحها، ومقبولها ومردودها، فإذا اقترن العلم بالعدل والإنصاف مع النفس أولا ثم مع الموالي والمخالف من الناس؛ كان حظه من محاسبة النفس وتأديبها وتزكيتها أكمل وأتم.

وأما حسن الظن بالناس فقد ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا تظنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من مسلم شرًّا وأنت تجدُ لها في الخير مَحْملاً، وقال: احمل أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك ما يغلبك منه، وقد قال الله تعالى: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات 12].



ومن عُيُوب النَّفس الانتقام لَهَا:

وَمن عيوبِها الانتقام لَهَا وَالْخُصُومَة عَنْهَا وَالْغَضَب لَهَا، ومداواتها عداوتها وبغضها، ومحبة الدّين وَالْغَضَب لارتكاب المناهي، كَمَا روى عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أَنه مَا انتقم لنَفسِهِ قطّ إِلَّا أن تنتهك محارم الله فَكَانَ ينْتَقم لله.

قال الله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)}؛ ويعين على الصبر والعفو وعدم الانتقام من الخصم والانتصار للنفس أمور:

منها: أن يشهدَ العبد أن الله سبحانه وتعالى خالقُ أفعالِ العباد؛ حركاتِهم وسَكَناتِهم وإراداتِهم، فما شاءَ الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تسترح من الهم والغم.

ومنها: أن يشهد العبد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بسببها، كما قال تعالى: {وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}؛ فيشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي أوجبت تسلطهم عليه، عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن عبد إلا ذنبه، وقال: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

ومنها: أن يشهد العبد حسن الثواب الذي وعده الله لمن عفا وصبر، كما قال تعالى: {وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين}؛ ويشهد نداء المنادي يوم القيامة: "ألا ليقم من وجب أجره على الله"، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح، وإذا شهد مع ذلك فوت الأجر بالانتقام والاستيفاء، سهل عليه الصبر والعفو.

ومنها: أن يشهد أنه إذا عفا وأحسن أورثه ذلك من سلامة القلب لإخوانه، ونقائه من الغش والغل وطلب الانتقام وإرادة الشر، وحصل له من حلاوة العفو ما يزيد لذته ومنفعته عاجلا وآجلا، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافا مضاعفة، ويدخل في قوله تعالى: {والله يحب المحسنين}.





ومنها: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قط لنفسه إلا أورثه ذلك ذلا يجده في نفسه، فإذا عفا أعزه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: "ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا"؛ فالعز الحاصل له بالعفو أحب إليه وأنفع له من العز الحاصل له بالانتقام، فإن هذا عز في الظاهر، وهو يورث في الباطن ذلا، والعفو ذل في الباطن، وهو يورث العز باطنا وظاهرا.

ومنها: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر لهم غفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويحسن إليه على ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره، ويكفي العاقل هذه الفائدة.

ومنها: أن يعلم العبد أنه إن شغل نفسه بالانتقام وردود الفعل ضاع عليك زمانه، وتفرق عليه قلبه، وفاته من مصالحه مالا يُمكن استدراكه، ولعلّ هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالته من جهتهم، فإذا عفا وصفح فرغ قلبه وجسمه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

ومنها: أن يشهد العبد أن رسول الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم ينتقم لنفسه، مع أن أذاه أذى الله، ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس وأزكاها وأبرها، وأبعدها من كل خلق مذموم، وأحقها بكل خلق جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

ومنها أنه إن أوذي على ما فعله لله، أو على ما أمر به من طاعته ونهي عنه من معصيته، وجب عليه الصبر، ولم يكن له الانتقام، فإنه قد أوذي في الله فأجره على الله، ولهذا لما كان المجاهدون في سبيل الله ذهبت دماؤهم وأموالهم في الله لم تكن مضمونة، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلب الثمن منهم لم يكن له على الله ثمن، فإنه من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، وإن كان قد أوذي على مصيبة فليرجع باللوم على نفسه، ويكون في لومه لها شغل عن لومه لمن آذاه، وإن كان قد أوذي على حظ فليوطن نفسه على الصبر، فإن نيل الحظوظ دونه أمر أمر من الصبر، فمن لم يصبر على حر الهواجر والأمطار والثلوج ومشقة الأسفار ولصوص الطريق، وإلا فلا حاجة له في المتاجر؛ فمن صدق في طلب شيء من الأشياء بدل من الصبر في تحصيله بقدر صدقه في طلبه.





ومنها: أن يشهد العبد معية الله معه إذا صبر، ومحبه الله له إذا صبر، ورضاه عنه؛ قال تعالى: {واصبروا إن الله مع الصابرين}، وقال تعالى: {والله يحب الصابرين}.

ومنها: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل من إيمانه جزاء في نصرة نفسه، فإذا صبر فقد أحرز إيمانه، وصانه من النقص، والله يدفع عن الذين آمنوا.

ومنها: أن يشهد أن صبره حكم منه على نفسه، وقهر لها وغلبة لها، فمتى كانت النفس مقهورة معه مغلوبة، لم تطمع في استرقاقه وأسره وإلقائه في المهالك، ومتى كان مطيعا لها سامعا منها مقهورا معها، لم تزل به حتى تهلكه، أو تتداركه رحمة من ربه.

ومنها: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فالله وكيل من صبر، وأحال ظالمه على الله، ومن انتصر لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها؛ فأين من ناصره الله خير الناصرين إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه؟.

ومنها: أن صبره على من آذاه واحتماله له يوجب رجوع خصمه عن ظلمه، وندامته واعتذاره، ولوم الناس له، فيعود بعد إيذائه له مستحييا منه نادما على ما فعله، بل يصير مواليا له، وهذا معنى قوله تعالى: {ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (34) وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم}.

ومنها: أنه ربما كان انتقامه ومقابلته سببا لزيادة شر خصمه، وقوة نفسه، وفكرته في أنواع الأذى التي يوصلها إليه، كما هو المشاهد. فإذا صبر وعفا أمن من هذا الضرر، والعاقل لا يختار أعظم الضررين بدفع أدناهما.

ومنها: أن من اعتاد الانتقام و لم يصبر لابد أن يقع في الظلم، فإن النفس لا تقتصر على قدر العدل الواجب لها، لا علما ولا إرادة، وربما عجزت عن الاقتصار على قدر الحق، فإن الغضب يخرج بصاحبه إلى حد لا يعقل ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم ينتظر النصر والعز، إذ انقلب ظالما ينتظر المقت والعقوبة.

ومنها: أن هذه المظلمة التي ظلمها هي سبب إما لتكفير سيئته، أو رفع درجته، فإذا انتقم و لم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.





ومنها: أن عفوه وصبره من أكبر الجند له على خصمه، فإن من صبر وعفا كان صبره وعفوه موجبا لذل عدوه وخوفه وخشيته منه ومن الناس، فإن الناس لا يسكتون عن خصمه، وإن سكت هو، فإذا انتقم زال ذلك كله.

ومنها: أنه إذا عفا عن خصمه استشعرت نفس خصمه أنه فوقه، وأنه قد ربح عليه، فلا يزال يرى نفسه دونه، وكفى بهذا فضلا وشرفا للعفو.

ومنها: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد له أخرى، وهلم جرا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سببا لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك.

(عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ بقليل من التصرف).

جمال الظاهر والباطن:

وَمن عيوبها اشتغالها بالإصلاح الظَّاهِر لزينة النَّاس وغفلته عَن إصْلَاح الْبَاطِن الَّذِي هُوَ مَوضِع نظر الله عز وَجل، ومداواتها أَن يتَيَقَّن أَن الْخلق لَا يكرمونه إِلَّا بِمِقْدَار مَا جعل الله لَهُ فِي قُلُوبهم، وَيعلم أَن بَاطِنه مَوضِع نظر الله فَهُوَ أولى بالإصلاح من الظَّاهِر الَّذِي هُوَ مَوضِع نظر الْخلق، قَالَ الله تَعَالَى: {إِن الله كَانَ عَلَيْكُم رقيبا}، وَقَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "إِن الله لَا ينظر إِلَى صوركُمْ وَلَا إِلَى أعمالكُم وَلَكِن ينظر إِلَى قُلُوبكُمْ".

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر، كما قال جرير بن عبد الله وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنت امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: "من آتاه الله وجها حسنا واسما حسنا وخلقا حسنا وجعله في موضع غير شائن له فهو من صفوة الله من خلقه"، وقال وهب: قال داود: يا رب أي عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمن حسن الصورة قال: فأي عبادك أبغض إليك؟ قال: كافر قبيح الصورة.



ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته ثم خرج إليهم فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تفعل هذا؟ قال: "نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيىء من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال".

فمجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال؛ فإن كان الظاهر مزينا مجملا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبحا مدنسا بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيئ الفاحش.

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضا على عبده يوجب شكرا، فإن شكره بتقواه وصيانته ازداد جمالا على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه له شيئا ظاهرا في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحا وشينا، وينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحا وشينا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

ومعلوم أن المنفي ليس نظر الإدراك وإنما نظر المحبة، فقد قال تعالى عن المنافقين {وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة} [سورة المنافقون 4]، وقال تعالى {وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا} [سورة مريم 74]؛ والأثاث المال من اللباس ونحوه، والرئي المنظر، فأخبر أن الذين أهلكهم قبلهم كانوا أحسن صورا وأموالا لنتبين أن ذلك لا ينفع عنده ولا يعبأ به؛ لما كانت حقائق أخلاقهم التي هي أملك بهم مشتملة على ما هو أبغض الأشياء وأمقتها إليه، وذلك أن الله يمتع بالصور كما يمتع بالأموال؛ وكلاهما من زهرة الحياة الدنيا؛ وكلاهما يفتن أهله وأصحابه؛ وربما أفضى به إلى الهلاك دنيا وأخرى، والهلكى رجلان: فمستطيع وعاجز، فالعاجز مفتون بالنظر ومد العين إليه، والمستطيع مفتون فيما أوتي منه غارق قد أحاط به ما لا يستطيع إنقاذ نفسه منه.

وقد تجد من يحتج لما حرم الله تعالى إذا استحسنته نفسه واستجمله هواه، بل ويحتج بما يجده في ذلك من راحة النفس ولذاتها بقول النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال، وينسى قوله: إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم



وأعمالكم، وهؤلاء مبتدعة ضلال أسوء من الفساق، فقد جعلوا ما نهى الله عنه مما أمر الله به، وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا، وبمثلهم يضل أولئك.

أما الفساق فقد يحبون المحرمات مؤمنين بأنها من المحرمات التي يكرهها الله تعالى ويبغضها، لكنهم لا يحبونها تدينا وتقربا إلى الله عز وجل، بل عقولهم وإيمانهم يبغضها ويكرهها، ولكن قد غلبهم هواهم، فهؤلاء قد يرحمهم الله إما بتوبة إذا قوى ما في إيمانهم من بغض ذلك وكراهته حتى دفع الهوى، وإما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك.

أما إذا اعتقد أن هذه المحبة لله، فإيمانه بالله يقوي هذه المحبة ويؤيدها، وليس عنده إيمان يزعه عنها، بل يجتمع فيها داعي الشرع والطبع؛ الإيمان والهدى، وذلك أعظم من شرب النصراني للخمر، فهذا لا يتوب من هذا الذنب ولا يتخلص من وباله إلا أن يهديه الله تعالى.

وقد ثبت في الصحيح "أنه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فقيل: يا رسول الله الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أفمن الكبر ذاك، فقال: لا، إن الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس"، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن الله يحب التجمل في اللباس الذي لا يحصل إلا بالغنى وأن ذلك ليس من الكبر.

وفي الحديث الصحيح: "ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: فقير مختال وشيخ زان وملك كذاب"، وكذلك الحديث المروي: "لا يزال الرجل يذهب بنفسه ثم يذهب بنفسه ثم يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله جبارا وما يملك إلا أهله"، فعلم بهذين الحديثين: أن من الفقراء من يكون مختالا؛ لا يدخل الجنة، وأن من الأغنياء من يكون متجملا غير متكبر؛ يحب الله جماله، مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، ومن هذا الباب قول هرقل لأبي سفيان: أفضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم؟ قال: بل ضعفاؤهم، قال: وهم أتباع الأنبياء، وقد قالوا لنوح: {أنؤمن لك واتبعك الأرذلون} فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته؛ لأن حبهم للرئاسة يمنعهم ذلك بخلاف المستضعفين.

والمقصود أن الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد ومنه ما يذم ومنه مالا يتعلق به مدح ولا ذم، فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره





والاستجابة له، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود، وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال ولباس الحرير في الحرب والخيلاء فيه؛ فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه، والمذموم منه ما كان للدنيا والرياسة والفخر والخيلاء والتوسل إلى الشهوات، وأن يكون هو غاية العبد وأقصى مطلبه؛ فإن كثيرا من النفوس ليس لها همة في سوى ذلك، وأما مالا يحمد ولا يذم فهو ما خلا عن هذين القصدين وتجرد عن الوصفين.

بل الغاية من قوله صلى الله عليه وسلم "إن الله جميل يحب الجمال" بيان اشتماله على أصلين عظيمين: فأوله معرفة وآخره سلوك؛ فيعرف الله سبحانه بالجمال الذي لا يماثله فيه شيء، ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل وجوارحه بالطاعة وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ، فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتي المعرفة والسلوك.

الاهتمام بالرزق:

وَمن عيوبها اهتمامها بالرزق وَقد ضمن الله ذَلِك، وَقلة اهتمامها بعَمَل افترضه الله عَلَيْهِ لَا يقوم عَنهُ غَيره، ومداواتها أن يعلم أَن الله الَّذِي خلقه ضمن لَهُ كِفَايَة رزقه، فَقَالَ عز وَجل: {الله الَّذِي خَلقكُم ثمَّ رزقكم}، ويحْكى عَن حَاتِم الْأَصَم أنه قَالَ: مَا من صباح إِلَّا والشيطان يَقُول: مَا تَأْكُل الْيَوْم وَمَا تلبس وَأَيْنَ تسكن؟ فَأَقُول لَهُ: آكل الْمَوْت وألبس الْكَفَن وأسكن الْقَبْر.

يقول الله تعالى: "يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، وكلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم"؛ وهذا يقتضي أصلين عظيمين:

أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة، كالطعام المغذي، ودفع المضرة كاللباس الواقي، وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة، وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال: {وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف} [البقرة: 233]، وقال: {ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم} [النساء: 5]، فالمأمور به هو المقدور للعباد، وكذلك قوله: {أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة} [البلد: 14-16].





وقوله: {وأطعموا القانع والمعتر} [الحج: 36]، وقوله: {فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير} [الحج: 28]، وقال: {وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه} [يس: 47]، فذم من يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القدر.

فالأخذ بالسبب المأمور به، أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب، بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة دائمة مع فعل السبب، إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب، فلا بد في اقتران الحوادث بالأسباب من مشيئة الله تعالى، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل على الله وأنه هو خالق الأسباب ومسببها فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل، وأخل بواجب عظيم من واجبات التوحيد، ولهذا يخذل أمثال هؤلاء إذا اعتمدوا على الأسباب، وهذا واقع كثير، فمن رجا نصرا أو رزقا أو مكانة من غير الله خذله الله، كما قال علي-رضي الله عنه-: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه.

وقد قال تعالى: {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم} [فاطر: 2]، وقال تعالى: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده} [يونس: 107]، وقال: {قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون} [الزمر: 38].

وفي مقابل هذا من زعم التوكل على الله تعالى؛ وترك ما أمر به من الأسباب؛ فهو أيضا جاهل ظالم عاص لله عز وجل بترك ما أمره، فإن فعل المأمور به عبادة لله سبحانه، وقد قال تعالى: {فاعبده وتوكل عليه} [هود: 123]، وقال: {إياك نعبد وإياك نستعين} [الفاتحة: 5].

فليس من فعل شيئا أمر به من الأسباب، وترك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعل توكلا أمر به وترك فعل ما أمر به من الأخذ بالسبب، إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه، تارك لما أمر به، مذنب عاص لله تعالى، وهما مع اشتراكهما في جنس الذنب فقد يكون هذا ألوم، وقد يكون الآخر، مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب وليس وحده.

وقد روى أبو داود في سننه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يلوم على





العجز، لكن عليك بالكيس، فإن غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل"، وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان".

ففي قوله صلى الله عليه وسلم: "احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز"؛ أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع، وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكيس، كما قال في الحديث الآخر: "إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس".

وكما في حديث آخر: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله"، فالعاجز في الحديث مقابل الكيس، ومن قال: العاجز الذي هو مقابل البر، فقد حرف الحديث ولم يفهم معناه، ومنه الحديث: "كل شيء بقدر حتى العجز والكيس"، ومن ذلك ما روى البخاري في صحيحه، عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، يقولون نحن المتوكلون فإذا قدموا سألوا الناس، فقال الله تعالى: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} [البقرة: 197]، فمن فعل ما أمر به من التزود فاستعان به على طاعة الله وتفضل منه على من يكون محتاجا، كان مطيعا لله في هذين الأمرين، بخلاف من ترك ذلك ملتفتا إلى أزواد الحجيج كلا على الناس، وإن زعم أن قلبه غير ملتفت إلى معين، فهو ملتفت إلى الجملة، لكن إن كان المتزود غير قائم بما يجب عليه من التوكل على الله ومواساة المحتاج، فقد يكون في تركه لما أمر به من التوكل، من جنس هذا التارك لما يسد حاجته من التزود المأمور به.

والمقصود بيان غلط من يلغي الأسباب أو يضعف أمرها ويعد من يأخذ بها ناقصا في درجات العبودية لله تعالى، ويقدح في توحيده وتوكله، ويجعل التخلي عن الأخذ بالأسباب من كمال التوكل وتمام التوحيد، وهذا مغبون ملبوس عليه، والطامة إذا قارنه وهو مقارنه لا محال اتباع الهوى في سكون النفس وطلبها للراحة والدعة وإخلادها إلى البطالة والكسل، ومن ثم يتعلق بأسباب دون تلك، وقد تكون مكروهة وقد تكون محرمة؛ فتجده يتعلق بالخلق رغبة ورهبة، بل هذا الغلو في التوكل قد يشغلهم بصغائر الأمور عن عظائمها، كمن يصرف همته





في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير، وصرف تلك الهمة، والتوجه في علم نافع وعمل صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبتله لهذا الأمر اليسير.

وفوق هؤلاء من يجعل التوكل والدعاء أيضا نقصا وانقطاعا عن الخاصة، الذين في ظنهم شاهدوا القدر واطلعوا على سره فلا تأثير للسبب سواء كان توكلا أو غيره، وغفلوا عن قوله تعالى: "كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم"، وقوله: "فاستكسوني أكسكم"، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع فإنه إن لم ييسره لم يتيسر".

وهؤلاء قد يلزمهم أن يجعلوا أيضا استهداء الله والعمل بطاعته من ذلك؛ فلا يفعلوا مأمورا ولا يتركوا محضورا، وقولهم يوجب دفع المأمور به مطلقا، بل دفع المخلوق والمأمور، وإنما غلطوا من حيث ظنوا أن سبق التقدير يمنع أن يكون بالسبب المأمور به، وهؤلاء مرضهم عضال؛ فلا عبودية ولا توكل ولا إيمان بالقدر، فالله أكبر أربعا وإنا لله وإنا إليه راجعون.

واعتبر والزم حديث الترمذي؛ عن سفيان، عن الزهري، عن أبي خزامة، عن أبيه، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقاة نتقيها، ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: "هي من قدر الله".

وبعض الناس في أعمال القلوب من التوكل والحب والخوف والرجاء والشكر ونحوها؛ يظن أنها من مقامات الخاصة المقربين فقط؛ ولا تجب على غيرهم، وهذا عين الضلال؛ بل جميعها فروض على جميع الناس باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها بالكلية فهو إما كافر أو منافق، لكن الناس فيها كما صنفهم الله تعالى في كتابه؛ منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، والقرآن والسنة مملوءان بهذا المعنى، فليس من ترك من هذه الأعمال الباطنة علما وعملا بأقل لوما وجرما ممن ترك من الأعمال الظاهرة، واستحقاق الذم والعقاب يلحق كليهما ممن ترك المأمور من الأمور الباطنة والظاهرة، إن كانت الأمور الباطنة مبتدأ الأمور الظاهرة وأصولها، والأمور الظاهرة كمالها وفروعها التي لا تتم إلا بها.

وأما من اعتقد أن التوكل يغني عن الأخذ بالأسباب المأمور بها فليس له عقل، وهو يستحق الذم والعقاب، وهو كمن ظن أن يتكل على ما سبق به القدر والكتاب من الشقاوة والسعادة، وقد ذكرت هذه المسألة في حظرة النبي صلى الله عليه وسلم وأجاب عنها بما يزيل



الشبهة ويشفي العليل؛ كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال: "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار فقيل يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ فقال: لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له" وبين صلى الله عليه وسلم أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من قدر الله تعالى؛ (فقيل له: أرأيت رقى نسترقي بها؟ وتقى نتقي بها؟ وأدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئا؟ فقال: هي من قدر الله).

وخلاصة الكلام أن الالتفات إلى الأسباب مناف لأصل الدين؛ وهو شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا وعدم الأخذ بها نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله وحده لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مشروعة مقدورة له أخذ بها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويعد عدة الحرب ويقاتل المعتدي، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد والاستعداد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم.

ذلك أن الله تعالى خلق الخلق بأسباب، وشرع للعباد أسبابا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه؛ أو ظن أن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابا لها فهو مخطئ خطأ فادحا، فمثلا؛ إن كان الله سبحانه وتعالى قد ضمن للعبد رزقه وهو لا بد أن يرزقه ما بقي حيا؛ فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله؛ لابد منها.

ومن هذا الباب الدعاء والتوكل؛ فقد ظن بعض الناس أن ذلك لا تأثير له في حصول مطلوب ولا دفع مرهوب ولكنه عبادة محضة لا تأثير لها؛ وما حصل به حصل بدونه، وظن آخرون أن ذلك مجرد علامة؛ والصواب الذي عليه سلف الأمة وجمهورها أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا والآخرة.

وما قدره الله بالدعاء والتوكل والكسب وغير ذلك من الأسباب إذا افترض عدمها ماذا يكون؛ بمترلة من يقول هذا المقتول لو لم يقتل هل كان يعيش؛ فظنت بعض القدرية أنه كان يعيش وظن بعض المنتسبين إلى السنة أنه كان يموت؛ والصواب أن الله تعالى قدر موته وقدر



السبب فلا يموت إلا به، كما قدر الله سعادة هذا في الدنيا والآخرة بعبادته ودعائه وتوكله وعمله الصالح وكسبه فلا يحصل إلا به، وإذا افترض عدم هذا السبب لم يعلم ما يكون المقدر، وبتقدير عدمه فقد يكون المقدر حينئذ أنه يموت وقد يكون المقدر أنه يحيى، فالتقديرين واردين والجزم بأحدهما خطأ، فلو قال القائل: أنا لا آكل ولا أشرب فإن كان الله قدر حياتي فهو يحييني بدون الأكل والشرب كان أحمق مغفلا.



من عيوب النفس التصنع في الكلام أمام الناس:

وَمن عيوبها حبها للْكَلَام على الأشهاد والخوض فِي فايق الْعُلُوم والتندر بالغريب من المعارف والدقيق منها ليصبو بِهِ قُلُوب الأغيار، وَيصرف بحسن كَلَامه وُجُوه النَّاس إِلَيْهِ؛ ليقال عنه عالم الأمة وعبقري الزمان وفريد عصره وأنه وحده يضيء البلاد، ومداواتها أن يسبق عمله لسانه؛ فيعمل بِمَا يعلم، ويعظ النَّاس بِفِعْلِهِ لَا بقوله، كَمَا روي أَن الله تبَارك وَتَعَالَى أوحى إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام: (إذا أردْت أَن تعظ النَّاس فعظ نَفسك فَإِذا اتعظت وَإِلَّا فاستحي مني)، وَأَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ: "مَرَرْت لَيْلَة الْإِسْرَاء بقوم تقْرض شفاههم بمقاريض من نَار فَقلت من هَؤُلَاءِ يَا جبْرِيل؟ فَقَالَ: هَؤُلَاءِ الخطباء من أمتك يأمرون النَّاس وينسون أنفسهم وهم يَتلون الْكتاب أَفلا يعْقلُونَ".

ومن عُيُوب النَّفس كَثْرَة الذُّنُوب:

وَمن عيوبها كَثْرَة الذُّنُوب والمخالفات إِلَى أَن يقسو الْقلب، فمن استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرا فإذا الصغير كبير، ومداواتها كَثْرَة الاسْتِغْفَار وَالتَّوْبَة فِي كل نفس، ومداومة الصّيام والتهجد بِاللَّيْلِ وخدمة أهل الْخَيْر ومجالسة الصَّالِحين وَحُضُور مجَالِس الذّكر، فإنه يقال مجالسة أهل الديانة تجلو عَن القلب صدأ الذنوب ومجالسة ذوي المروءات تدل على مكارم الأخلاق ومجالسة العلماء تذكي القلوب، وإن رجلا شكا إِلَى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قسوة قلبه فَقَالَ: "أدنه من مجَالِس الذّكر"، وَقَالَ: "إِنِّي لأستغفر الله فِي الْيَوْم سبعين مرّة"، وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل ابن آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها.

وقَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإذا زاد زيد فيها حتى تعلو كل قلبه فذلك الران"، ثمَّ قَرَأَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: {كلا بل ران على قُلُوبهم مَا كَانُوا يَكْسبُونَ}، وذلك أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به، يتأتى منه ما هيئ له وخلق لأجله، وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته، وعدم التأتي لما يراد منه، كاليد

الشلاء، واللسان الأخرس، والعين العمياء، وإما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد.

وإياك والكذب فإنه رأس الذنوب وهو يبدي الفضائح ويكتم المحاسن، وإن من أجرد مَا يستعين المرء به على الاستقامة الطبع الجيد مع الهمة واجتناب الذنوب، وإياك والغضب الذي يخرجك إلى المعاصي ويسطع في قلبك الأحقاد وحب الانتقام، وتخلق بالحلم فإن من نفاسته أن الله جل وعلا تسمى به واتصف، ثم لم يسم بالحلم في كتابه أحدا إلا إبراهيم خليله وإسحاق نبيه حيث قال {إن إبراهيم لآواه حليم} وقال {فبشرناه بغلام حليم}، ولو لم يكن في الحلم خصلة تحمد إلا ترك اكتساب المعاصي والدخول في المواضع الدنسة لكان الواجب على العاقل أن لا يفارق الحلم ما وجد إلى استعماله سبيلا.

فالقبائح تسود القلب، وتطفئ نوره، والإيمان نور في القلب، والقبائح تذهب به أو تقلله قطعا، فالحسنات تزيد نور القلب وتبيضه، والسيئات تطفئ نور القلب وتسوده، والمعاصي للإيمان كالمرض والحمى للقوة، سواء بسواء، ولذلك قال السلف: المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت، والعاقل يلزم ثلاث: وهي صون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان، فيكون على الدوام عاملا على تزكية نفسه وصونها، وتأهيلها للوصول إلى ربها، فهو يصونها عما يشينها عنده، ويحجبها عنه، ويصون حسناته عما يسقطها ويضعها؛ لأنه يسير بها إلى ربه، ويطلب بها رضاه، ويتقرب بها إليه سبحانه، ويصون إيمانه بربه من حبه له، وتوحيده، ومعرفته به، ومراقبته إياه عما يطفئ نوره، ويذهب بهجته، ويوهن قوته.

الصحبة التي لا تليق:

وَمن عيوبها ميلها إِلَى معاشرة الأقران وصحبة الإخوان، ومداواتها أَن يعلم أن الصاحب لَهُ مفارق والمعاشرة مُنْقَطِعَة، كَمَا روي عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم قَالَ لَهُ جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام: "عش مَا عِشْت فَإنَّك ميت وأحبب من شِئْت فَإنَّك مفارقه واعمل مَا شِئْت فَإنَّك مجزى بِهِ"، وَقَالَ أبو الْقَاسِم الْحَكِيم: الصداقة عَدَاوَة إِلَّا مَا صافيت وَجمع المَال حسرة إِلَّا مَا واسيت والمخالطة تَخْلِيط إِلَّا مَا داويت.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مثل الجليس الصالح مثل العطار إن لم ينلك منه أصابك من ريحه ومثل جليس السوء مثل القين إن لم تصبك ناره أصابك شرره، ولصاحب صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير



من الساكت، والساكت خير من مملي الشر، فالعاقل يلزم صحبة الأخيار ويفارق صحبة الأشرار لأن مودة الأخيار سريع اتصالها بطيء انقطاعها، ومودة الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومن خادن الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم.

وليستعيذ العبد بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يعنه وإن نسي لم يذكره وإن غفل حرضه على ترك الذكر، ومن كان أصدقاؤه أشرارا كان هو شرهم، وكما أن الخير لا يصحب إلا البررة كذلك الردى لا يصحب إلا الفجرة، وخير الأصحاب أشدهم مبالغة في النصيحة، كما أن خير الأعمال أحمدها عاقبة وأحسنها إخلاصا، وضرب الناصح خير من تحية الشانئ.

فإذا رزق العبد ود امرئ مسلم صحيح الوداد محافظ عليه فليتمسك به، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرمه، وعلى الإقبال عليه إن صد عنه، وعلى البذل له إن حرمه، وعلى الدنو منه إن باعده، حتى كأنه ركن من أركانه، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد؛ كما قال الشاعر:

وكم من صديق وده بلسانه ... خؤون بظهر الغيب لا يتندم

يضاحكني كرها لكيما أوده ... وتتبعني منه إذا غبت أسهم ..

فالعاقل لا يقصر في تعاهد الوداد، ولا يكون ذا لونين وذا قلبين، بل يوافق سره علانيته، وقوله فعله، ولا خير في متآخيين ينمو بينهما الخلل ويزيد في حاليهما الدغل.

ومن صحح الحال بينه وبين الإخوان لم يضره قلة الاجتماع لاستحكام الحال بينهما، والمودة إذا أضر بها قلة الالتقاء تكون مدخولة.

ولا ينبل الرجل حتى يعف عما في أيدي الناس ويتجاوز عما يكون منهم، كما يقول الشاعر:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا ... خليلك لم تلق الذي لا تعاتبه

فعش واحد أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى .. ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه





ومن عُيُوب النَّفس الْأنس بِالطَّاعَة:

وَمن عيوبها أُنْسُهَا بطاعتها ورؤية استحسانها، فإنه أقرب شيء إلى مقت الله عز وجل، ومن رأى نفسه فقد استولت عليه، ومن استولت عليه النفس صار أسيرا في سجن الشهوات محصورا في حكم الهوى، فحرم الله على قلبه الفوائد، ومداواتها أَن تعلم أن أفعالها وَإِن أخلصتها فَهِيَ مَعْلُولَة، فهي لَا تَخْلُو من الْعِلَل، وأن الله سبحانه وتعالى أجل وشأنه أعظم، فيعْمل العبد فِي إِسْقَاط رُؤْيَة استحسانه من أفعالها، ويعمل ليصير كله لله عز وجل، ولا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه.

وقد اتفقت كلمة العارفين على أن دوام الافتقار إلى الله مع التخليط خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب، مع أنه لا صفاء معهما، وأن من رأى نفسه، تكبر، والمتكبر أحمق؛ لأنه ما من شيء يتكبر به إلا ولغيره أكثر منه، ومن رأى نفسه راءى الخلق؛ ففرغ قلبه من الحق وامتلأ بالناس وانشغل بهم، فصار يعمل لهم، ومن أجلهم، فعبدهم وهو لا يعلم!.

وقال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي لم فعلت؟ وكيف فعلت؟ فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه؛ هل هو حظ عاجل من حظوظ النفس، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم، أو استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه؟.

ومحل هذا السؤال: أنه، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك؟.

والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد، أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي، أم كان عملا لم أشرعه و لم أرضه؟.

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما.





فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذه حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة.

وقلب المرء إذا كانت قبلته نفسه فإنه يمرض؛ فيتعذر عليه ما خلق له من معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه، والإنابة إليه، وإيثار ذلك على كل شهوته، فلو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه، فكأنه لم يعرف شيئا، ولو نال كل حظ من حظوظ نفسه ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله، والشوق إليه، والأنس به، فكأنه لم يظفر بشيء ولا قرت عينه، بل إذا كان القلب خاليا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابا له حتما، فيصير معذبا بنفس ما كان منعما به من جهتين: من جهة حسرة فوته، وأنه حيل بينه وبينه، مع شدة تعلق روحه به، ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم، حيث لم يحصل له، فالمحبوب الحاصل فات، والمحبوب الأعظم لم يظفر به، ويا له من خسران وبوار.

فلابد للمرء من التفتيش في أعماله عما يشوبها من حظوظ النفس؛ والتنقيب عما يفسدها، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس وهواها، ولعل أكثرها أو كلها أن تكون حظا لنفسك وأنت لا تشعر، فلابد له أن يخلص عبوديته التي هي حقيقته وسره من وسخ حظوظ نفسه وإراداتها المزاحمة لمراد ربه منه، فإن تحقيق العبودية لا يكون إلا بفقد النفس الحاملة للحظوظ، فمتى فقدت حظوظها تمحصت عبوديتها، وكلما مات منها حظ حيي منها عبودية ومعنى، وكلما حيي فيها حظ ماتت عبودية، حتى يعود الأمر على نفسين وروحين وقلبين: قلب حي، وروح حية بموت نفسه وحظوظها، وقلب ميت، وروح ميتة بحياة نفسه وحظوظه، وبين ذلك مراتب متفاوتة في الصحة والمرض، وبين بين، لا يحصيها إلا الله عز وجل.

فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟ وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر البتة، وهو غير خالص لله، ويعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقا، وهو خالص لوجه الله، ولا يميز هذا إلا أهل البصائر.

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل، وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة، ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في





أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق، ورأى الحق والباطل، وميز بين أولياء الله وأعدائه، وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال وإشهار، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب، ومن رحمة الله تعالى سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة.

والدواء الناجع أن ينظر العبد بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق، والمحرك الأول، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل، ثم أن ييأس من النجاة بعمله، ويرى النجاة إنما هي برحمته تعالى ومنه وفضله، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "لن ينجي أحدا منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل".

فالله عز وجل هو المحسن بالسبب والمسبب، والأمر له من قبل ومن بعد، وهو الأول والآخر، لا إله غيره، ولا رب سواه.

الْأَمْن من مكر الشَّيْطَان:

وَمن عيوبها أَن تأمن من مكر الشَّيْطَان وتسويله ومكره، ومداواتها تَصْحِيح الْعُبُودِيَّة بشرائطها، والتضرع إِلَى الله فِي أَن يمن عَلَيْهِ بذلك، لِأَن الله تَعَالَى يَقُول: {إِن عبَادي لَيْسَ لَك عَلَيْهِم سُلْطَان}، ولابد للعبد من معرفة الشيطان وطرقه في غواية بني آدم ليشركوه في سوء مصيره.

معرفة عدو الله إبليس:

فأما معرفة عدو الله إبليس، فإنها تتم باليقين بأنه قد عادى الله تعالى وعادى أبانا آدم عليه السلام، فإنه قد عصى الله تعالى حين أمره بالسجود لأبينا آدم عليه السلام، وتكبر عليه، فأخذ يفاضل بين الأصول فقال: {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}، ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم فقال: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}، معترضا على الله سبحانه أن الذي فعلته ليس بحكمة، ثم أتبع ذلك بالكبر فقال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}، ثم امتنع عن السجود فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعن والعقاب، قال تعالى: {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا





يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ، قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}.

والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وهو يتضمن جميع طرق الخير، وما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك، كما في الحديث: "إِن الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ كُلِّهَا"، فالعبد إن سلك طريقا في طاعة الله وجد شيطانا عليها يثبطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلك طريقا لمعصية الله وجده عليها دليلا له وخادما ومعينا وممنيا.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأقوال والأعمال والأحوال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصائده ومكائده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعريض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان {إِنّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: 42]، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء {إِلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [الحجر: 40].

وقال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلا شَيْطَاناً مَرِيداً لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضا وَلأضِلَّنَّهُمْ وَلأمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خسرَاناً مُبِيناً يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُوراً}، فمن اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم، وقد أقسم على إضلال بني آدم عن الحق، وإعاقتهم عن التوبة بتأخيرها بالتسويف، وأن يمنيهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع، وطول البقاء في نعيم الدنيا، وإيثارها على الآخرة، وإيهامهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة.





فالشيطان يعده الباطل الذي لا حقيقة له، وهو الغرور، ويمنيه المحال الذي لا حاصل له، والنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، فهو يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه الذي جعله الله طريقه، فكل مبطل في العلم والعمل له نصيب من قوله: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُوراً}.

فأقسم عدو الله على أن يضار آدم عليه السلام في ذريته، {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، فهو لا يغفل إذا غفل العبد ولا يسهو إذا سها، دائبا حريصا في عطبه، مجتهدا في هلاكه، لا يمل ولا يكل، متسلطا عليه في نومه ويقظته، في سره وعلانيته، في الطاعة ليبطلها وفي المعصية ليوقعه فيها، لا يألو به جهدا ولا خديعة ولا حيلة ولا مكرا، مداخله وحبائله نفوس العباد، يزين لها الشهوات ويلبس عليها بالشبهات، لا راحة له إلا إذا ورد العبد مورده، {إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}.

وجهاد الشيطان لا يتم إلا بدفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك، ومن الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعده الصبر، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ}، فأخبر أن إمامة الدين لا تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

قال الله تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}، وقال تعالى: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}، فنهى عن إتباع خطواته، وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم، وقال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً}، فالشيطان يأمر العباد بالشر ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهى المغفرة.

وفى الحديث المشهور: "إن للمَلك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد"، ثم قرأ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ}، فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر والسوء، والله





يعد المغفرة والفضل، ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما قال تعالى عن نبيه: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبائث وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}، وقال عن أمته: {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}، فاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحصن الحصين، من دخله فقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو إليه منه و {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

من كيد إبليس بالإنسان:

لما كان من خلقة الإنسان أنه يطلب ما ينفعه ويدفع ما يضره، عمل الشيطان على أن يورده الموارد التي فيها عطبه، ويخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل ثم يفضحه، قال تعالى: {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمَ الْيَوْمَ مِنَ النّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَالا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهُ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، وقال تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِني بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالِمينَ}، وهذا عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضى حاجته، فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه في النار، قائلا: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}.

ومن كيد عدو الله تعالى أنه يخوف المؤمنين من جنده وحزبه، فلا يقومون فيهم بأمر الله ونهيه؛ فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، قال الله سبحانه: {إِنَّمَا ذِلِكُمُ الشّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

ومن كيده أنه يسحر العقل ويزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفره مما ينفعه، حتى يخيل له أنه يضره، فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية حين خسف بهم وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب



عباد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

ومن كيده أنه يشم النفس، ليعلم أي القوتين تغلب عليها؛ قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة والإحجام والمهانة، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وتهوينه حتى يتركه، أو يقصر فيه ويتهاون به، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، حتى يدخله في الغلو والتنطع، كما قال بعض السلف: "ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالى بأيهما ظفر".

فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد، وقوم قصر بهم عن إخراج الصدقات، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلا على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم، وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم، وقصر بآخرين حتى زين لهم ترك سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

وكذلك قصر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم كاليهود، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم كالنصارى، وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى، وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه والحرام ما حرموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيحة الصريحة.

وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به، وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلا، أو فضولا، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.



وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقاتلوهم، واستحلوا حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة: من العصمة وغيرها، وربما ادعوا فيهم الإلهية، كالرافضة الإمامية، وغير هذا من التقصير والتجاوز كثير جدا لا يحصيه إلا الله تعالى.

ومن كيده أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره إلى مخالطة أهل الأهواء والبدع وأهل الفجور والمعاصي، فيتعلق بهم قلبه، فيروم التخلص منهم فيعجز، ولا يزال العدو يسعى بينهما من باب حسن الخلق، وطلاقة الوجه، حتى يفسد عليه دينه ودنياه.

ومن ذلك ما يزينه الشيطان للمغرورين من أنهم قادرين على الخوض في أنواع من الباطل من علم الكلام والفلسفة، وأن لهم حظا من الذكاء والفطنة يمنعهم من الزيغ.

ومن كيده أن يأمر العبد أن يولي ظهره للمساكين وذوى الحاجات، وإذا ما لقيهم كشر في وجوههم، لئلا يطمعوا فيه، ويتجرؤوا عليه، فتسقط هيبته من قلوبهم، فيحرمه صالح أدعيتهم، ومحبتهم له، فيأمره بسوء الخلق مع هؤلاء، وبحسن الخلق مع أولئك، ليفتح له باب الشر، ويغلق عنه باب الخير.

ومن كيده أن يأمر العبد بإعزاز نفسه وصونها حيث يكون رضا الرب تعالى في إذلالها وابتذالها، كجهاد الكفار والمنافقين، وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ويأمره بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها في إعزازها وصيانتها، كما يأمره بالتبذل لذوي المناصب والرياسات والسلطان، وإهانة نفسه لهم، ويخيل إليه أنه يعزها بهم، ويرفع قدرها بالذل لهم.

ومن كيده أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو زاوية، وينهاه عن مخالطة الناس، لئلا يسقط من أعينهم، وتذهب هيبته من قلوبهم، وربما يجره إلى أنواع خفية من الكبر، واحتقار الناس وازدرائهم، والإعجاب بالنفس، فيمسي يريد أن يزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجيء ذوي المناصب والسلطان إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، والتبرك به، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله، ويتعوض عنه بما يقرب الناس إليه، فيوقعه في أنواع من الشرك والنفاق.

وهذا باب واسع جداً لو تتبعناه لبلغ مبلغا كثيراً، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة، فالحذر الحذر، فإنه يجب على العبد أن لا يغفل ولا يسهى، وأن يعلن على عدو الله حربا لا هوادة فيها، ويحاربه أشد المحاربة ويجاهده أشد المجاهدة، سرا وعلانية، ظاهرا وباطنا، لا يقصر في ذلك





ولا يألو جهدا، مستعينا بالله متضرعا له متوسلا لاجئا إليه، يرى من نفسه الضعف والفقر والفاقة ومن ربه القوة والغنى والنصرة، وينبغي للعبد أن يعلم أنه في جهاد عظيم وفي قرب من الرب الجليل، لا يوصف شرف مقامه، أعاذنا الله عز وجل وجميع المسلمين من شر إبليس وجنوده ومن كيدهم ومكرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



ومن عيوبها التزين بما ليس فيها:

وَمن عيوبها أن تتزين بزِي الصَّالِحين معلنة له ومظهرة إياه؛ في حين تعمل عمل أهل الْفساد مبطنة له مسرة إياه، ومداواتها ترك زِينَة الظَّاهِر إِلَّا بعد إصْلَاح الْبَاطِن، فَإِن من تزين بزينة قوم اجْتهد فِي أَن يوافقهم فِي أَخْلَاقهم وأفعالهم كلهَا أَو بَعضهَا مداهنة ونفاقا، وقد روي فِي الْخَبَر أَنه قَالَ: كفى بِالْمَرْءِ شرا أن يرى النَّاس أَنه يخْشَى الله وَقَلبه فَاجر.

ذلك أن المتزين بما ليس فيه ضد المخلص، فإنه يظهر للناس أمرا يرى أنهم يحبونه وهو في الباطن بخلافه، ومثل هذا يعامله الله بنقيض قصده، فإنه "من تزين بما ليس فيه شانه الله"، تحقيقا لسنة الله الشرعية والقدرية في المعاقبة بنقيض القصد، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ولما كان من تزين للناس بما ليس فيه من الخشوع والدين والنسك والعلم وغير ذلك قد نصب نفسه للوازم هذه الأشياء ومقتضياتها فلا بد أن تطلب منه، فإذا لم توجد عنده افتضح، فيشينه ذلك من حيث ظن أنه يزينه، وأيضا فإنه أخفى عن الناس ما أظهر لله خلافه، فأظهر الله من عيوبه للناس ما أخفاه عنهم، جزاء له من جنس عمله.

وكان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من خشوع النفاق، قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا والقلب غير خاشع؛ وأساس النفاق وأصله هو التزين للناس بما ليس في الباطن من الإيمان؛ وهذا من أنفع الكلام وأشفاه للسقام.

وعلاج هذا الداء بالإخلاص والصدق؛ والأول هو التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك؛ فتستوي أعمال العبد في الظاهر والباطن؛ وينسى رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، والثاني هو التنقي من مطالعة النفس فيكون باطنه أعمر من ظاهره، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له، ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر.

ومما يعين على هذا ويغري رؤية ثواب الله للمخلصين الصادقين؛ فإن الله سبحانه يجزي العبد على ما عمل من خير في الدنيا ولا بد، ثم في الآخرة يوفيه أجره، كما قال تعالى: {وإنما توفون أجوركم يوم القيامة} [آل عمران: 185]، فما يحصل في الدنيا من الجزاء على الأعمال الصالحة ليس جزاء توفية، وإن كان نوعا آخر كما قال تعالى عن إبراهيم: {وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [العنكبوت: 27]، وهذا نظير قوله تعالى: {وآتيناه في

الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [النحل: 122]، فأخبر سبحانه أنه آتى خليله أجره في الدنيا من النعم التي أنعم بها عليه في نفسه وقلبه وولده وماله وحياته الطيبة، ولكن ليس ذلك أجر توفية، وقد دل القرآن في غير موضع على أن لكل من عمل خيرا أجرين: أجر عمله في الدنيا ويكمل له أجره في الآخرة كقوله تعالى: {للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين} [النحل: 30]، وفي الآية الأخرى: {والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون} [النحل: 41]، وقال في هذه السورة: {من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون} [النحل: 97] وقال فيها عن خليله: {وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين} [النحل: 122].

ومما يزجر عن العمل لغير الله والتزين للناس بما ليس فيه؛ خبر النبي صلى الله عليه وسلم عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارئ القرآن، والمجاهد، والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله تعالى، والحديث الصحيح الإلهي الذي يقول فيه الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه بريء"، وفي أثر آخر: يقول له يوم القيامة اذهب فخذ أجرك ممن عملت له، لا أجر لك عندنا.

وَمن عيوبها قلَّة الْمعرفَة بالآمر:

وَمن عيوبها الكسل وَالْقعُود عَن الْأَمر، ومداواتها أن يعلم أنه مَأْمُور من جِهَة الْحق ليحمله فَرح ذَلِك على النشاط، وَلذَلِك قال بعض السلف: التهاون بِالْأَمر من قلَّة الْمعرفَة بالآمر.

فأما معرفة الله فهي أن يلزم العبد قلبه قرب ربه منه، وقيامه عليه، وقدرته عليه، وشهادته وعلمه به، وأن الله هو العليم بكل شيء، والمحيط بكل شيء، والخالق لكل شيء، والقادر على كل شيء، وأن سمعه وسع الأصوات وبصره أحاط بجميع المبصرات، وأنه رقيب حفيظ، وأنه واحد ماجد، لا شريك له في ملكه، ولا في ربوبيته ولا في إلهيته، وأن وعده صادق، وأنه أوفى من وعد، وله مقام تصير إليه الخلائق، وله لقاء وثواب وعقاب، وله العزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، وله الكلمات التامات النافذات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر



من جميع البريات، وأنه كما وصف نفسه ووصفه رسوله، له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وأنه كاف عبده، وأنه رحيم ودود، وأنه حي قيوم، وأنه نور السموات والأرض، يعلم السر وأخفى، ويعلم الخطرة والهمة والإرادة والوسواس والحركة والطرفة والغمز والهمز، وما فوق ذلك وما دون ذلك، مما دق فلا يعرف، وجل فلا يوصف، مما كان وما يكون، وأنه عزيز حكيم.

وهو المالك للعطاء والمنع والإكرام والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، كل يومٍ هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن، يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما، ويفك عانيا ويغني فقيرا ويجبر كسيرا ويشفي مريضا، ويقبل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويعطي سائلا، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقواما ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه دائر بين العدل والإحسان، والمن والافضال، والحكمة والمصلحة والرحمة.

فهو الحي القيوم الذي لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم، مالك السموات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، العالم بكل شيء الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يعلم دبيب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها الملك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب، البصير الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة فما دونها وما فوقها، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرض وما فوق السماء، السميع الذي قد استوى في سمعه سر القول وجهره، وسع سمعه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه اللغات، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه كثرة السائلين ولا اختلاف ألسنتهم، القدير الذي لكمال قدرته يهدى من يشاء ويضل من يشاء، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، ولكمال قدرته خلق





السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسه من لغوب، ولا يعجزه أحد من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، فإن فر منه فإنما يطوى المراحل في يديه، كما قيل: وكيف يفر المرء عنك بذنبه ... إذا كان يطوى في يديك المراحلا

ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والظهير والشفيع بدون إذنه إليه، ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السموات والأرض، وهو العالي على كل شيء وفوق كل شيء، وهو بكل شيء محيط، ولا تنفد كلماته ولا تبدل، ولو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادا وأشجار الأرض أقلاما، فكتب بذلك المداد وبتلك الأقلام، لنفد المداد وفنيت الأقلام، و لم تنفد كلمات الله سبحانه، فلا إله إلا الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته، له الحمد كله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ومن عُيُوب النَّفس قلَّة الِاعْتِبَار:

وَمن عيوبها قلة الِاعْتِبَار بِمَا يرَاهُ من إمهال الله إِيَّاه فِي ذُنُوبه، ومداواتها دوَام الخشية، وأن يعلم أَن ذَلِك الْإِمْهَال لَيْسَ بإهمال، فَإِن الله تَعَالَى مسَائِله عَن ذَلِك ومجازيه، إِلَّا أَن يرحمه الله، فَإِن الِاعْتِبَار لأهل الخشية، لِأَن الله تَعَالَى يَقُول: {إِن فِي ذَلِك لعبرة لمن يخْشَى}، قَالَ الْقَائِل: ... غرها إمهال خَالِقهَا لَهَا ... لَا تحسبن إمهالها إهمالها ...

فينبغي لكل ذي لب وفطنة أن يحذر عواقب المعاصي، فإنه ليس بين آدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم، وإنما هو قائم بالقسط، حاكم بالعدل، وإن كان حلمه يسع الذنوب، إلا أنه إذا شاء، عفا، فعفا كل كثيف من الذنوب، وإذا شاء أخذ باليسير؛ فالحذر الحَذَرَا!

وعلى العبد أن يعلم أن الله تعالى إنما أمهله ليعتبر بمن أخذ بذنبه، فيتوب من قريب، فينظر في الجناية والقضية فيعرف مراد الله فيها إذ خلاه وإتيانها وقدره عليها ولو شاء لعصمه منها، فإن الله تعالى إنما يخلي بين العبد والذنب لأحد معنيين:

الأول: أن يعرف عبرته في قضائه فيشهد أنه ذليل حقير أمام رب عزيز حكيم، ويعرف بره في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له وقدرته عليه، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه ونبذوه، ثم يرى حلمه في إمهال راكبه ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، و يشهد كرمه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه معترفا مقرا بين يدي ربه،





متوسلا إليه بضعفه وذله ومسكنته وأنه غره بالله الغرور، ويرى فضله في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله تعالى، وإلا فلو أخذك بمحض حقه، كان عادلا محمودا، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك.

والثاني: ليقيم على العبد حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته، فهو سبحانه الحكم العدل إن عاقب، وهو المنان ذو الفضل إن عفا وغفر، فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول، وإنزال الكتاب، وبلوغ ذلك إليه، وتمكنه من العلم به، سواء علم أم جهل، فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، فقصر عنه ولم يعرفه، فقد قامت عليه الحجة، والله سبحانه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه، قال الله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} [الإسراء: 15]، وقال: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير - قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء} [الملك: 8 - 9].

فلما كانت النفس متعجرفة، فيها من مضاهاة الربوبية ما فيها، ولو قدرت لقالت كقول فرعون، ولكنه قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمر، كان من رحمة الله بها أن كسرها بذل العبودية ليخلصها من هذه المضاهاة ويطهرها من تلك العجرفة، فيترقى العبد في مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يدي ربه، والافتقار والفاقة إليه، وخوفا وخشية منه، ويتخلص من رق المعصية وذلها، ويكمل في محبة الله والإنابة إليه، وهذه المعاني هي لب العبودية وسرها، وحصولها أنفع شيء للعبد، وأحب شيء إلى الله.

وهذه بضاعة عزيزة جليلة، الله أعلم حيث يسوقها وإلى من يستحقها من تجارها والعارفين بها، وإن وقعت في الطريق بيد من لا يعرف قدرها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، فكن واحدا من هؤلاء أو أولئك، ولا تكن ممن ختم الله على قلبه وملكته نفسه، لتسوقه إلى النار وهو لا يدري، فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه، ووالى عدوه وظاهره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام، فاستدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه.

فَاللهَ اللهَ في مراقبة الحق عز وجل؛ فإن ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مراصد للمخطئ، ولو بعد حين، وربما ظن أنه العفو، وإنما هو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة.





فَاللهَ اللهَ! والخلوات الخلوات! والبواطن البواطن! والنيات النيات! فإن عليكم من الله عينًا ناظرةً! وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم استدرج! وكونوا على مراقبة الخطايا قائمين، وفي محوها مجتهدين! وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا، وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه.

وأما السر الأعظم، الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رءوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد، فازدادت به معرفة لربها ومحبة له، وطمأنينة به وشوقا إليه، ولهجا بذكره، وشهودا لبره، ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافا على حقيقة الإلهية، وهو ما ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لله أفرح بتوبة عبده – حين يتوب إليه – من أحدكم، كان على راحلة بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال – من شدة الفرح – اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح".

هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله عز وجل وأسمائه وصفاته، وما يليق بعز جلاله وعظيم قدره وسلطانه.

كيف يرى المؤمن ذنبه؟

إن المؤمن الكيس الفطن حقا؛ حين يذنب يتساءل كيف أن الله تعالى خلى بينه وبين الذنب، بل وأقدره عليه وخلق له أسبابه، مع أنه تعالى لو شاء لعصمه، ولكنه بنور الله يرى حكما عظيمة لا يحصيها إلا الله سبحانه، قد من ربنا علينا بالبعض منها، وما خفي أعظم:

الأول: أن يرى العبد أن الله يحب التَّوابين ويفرح بتوبتهم، فيخاف ذنبه ويرجو ربه، ويرى ما يريد ربه أن يستخرجه منه من محبته وشكره لربه إذا تاب إليه ورجع إليه، فإنه بتوبته يزداد محبة وشكرا ورضا لا يحصل بدونها، ثم يرى عزة الله سبحانه في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فيرى من نفسه أن الحاجة والفقر وصف ذاتي لها لا تنفك عنه ولا ينفك عنها، وأنه في حاجة دائمة إلى حفظ الله له وصيانته، وإلا فمآله حتما إلى الهلاك والعطب والضياع.





الثاني: أن يرى أن الله تعالى يريد أن يستخرج منه طلب العون من الله والاستغاثة به والتعوذ به من عدوه إبليس وجنوده، ومن شر نفسه وشركه، فيدعو ويتضرع ويبتهل بين يدي ربه الأعلى مسبحا مستغفرا، واضعا جبهته على الأرض ومرغما أنفه في التراب، فيرى العبد نفسه ذليلة منكسرة بين يدي ربه، فإنه متى شهد صلاحه واستقامته ساكنه العجب والكبر، فإذا ابتلي بالذنب تصاغرت عنده نفسه، فعرف خستها وحقارتها، وأنها الخاطئة الجاهلة، وما عنده من علم وعمل ما هو إلا محض فضل الله وكرمه لا من نفسه، وأيقن أن المعصوم من عصمه الله تعالى.

الثالث: أن يرى العبد سعة حلم الله وكرمه في ستره عليه وإمهاله حتى يتوب، فإنه لو شاء لعاجله بالعقوبة وفضحه على الملأ، فيوقن أن الطريق الوحيد للنجاة في عفو الله ومغفرته وكرمه في قبول توبته مع ظلم العبد وإساءَته، ولا ينسى أن حجة الله قائمة عليه، فإن له عليه الحجة البالغة، فإن عذبه فبعدله وإن غفر له فبرحمته.

الرابع: أن يرى العبد أن الجزاء من جنس العمل، فما يحب أن يعامله الله تعالى به حين يذنب، يعامل هو الناس به في إساءتهم إليه وزلاتهم معه، فيصنع في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله في ذنوبه، فيعذر الناس ويرحمهم ويكون سهلا سمحا، مع القيام فيهم بأمر الله بحسب مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، متزودا بالعلم ومتحليا بالرفق ومتسلحا بالصبر واليقين.

الخامس: أن يرى العبد صولة الطاعة فيخلعها من قلبه، ويغذوه بالرقة والرأفة والرحمة والمسكنة، ويعريه من رداءِ العجب ويجمله بلباس التقوى، ويجرده من ثياب الترفع واحتقار الغير وازدرائهم، ويلبسه لباس الذل الذي لا يليق بالعبد سواه، ويرفع عنه حجاب الدعوى، ويفتح له طريق الفاقة، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من العبودية، فدوام الفقر إلى الله مع التخليط خير من الصفاءِ مع العجب.

السادس: أن يرى العبد أن الله لطيف خبير، يريد أن يستخرج من قلب عبده عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما، من البكاء والإشفاق والندم، والعزم على عدم العود، والمبادرة في إصلاح ما فسد، وتدارك ما سلف، فحينئذ يعرف العبد مقدار معافاة الله له وتفضله عليه و توفيقه وعصمته، فإن من تربى في النعمة لا يعرف مقدارها ما لم يعرف ما يقاسيه المبتلى.



السابع: أن يرى العبد إساءته وظلمه في مقابل عظمة الله وكرمه وإحسانه، فيستكثر القليل من نعم الله على نفسه المسيئة، ويستقل الكثير من عمله في جنب ربه، فالرب يستحق ما هو أحسن وأفضل، فإن شأن الله أعظم.

الثامن: أن يرى العبد أَمراض قلبه الدفينة والتي لا يشعر بها، فيطلب دواءَها من ربه، فيمن عليه اللطيف الخبير، ويقضى عليه بذنب ظاهر، فيزول الحجاب ويرى العبد الخلل، فيسرع إلى إصلاحه بتوفيق الله وكرمه، فتزول تلك الأمراض بإذن الله الواحد، كما قيل: لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل.

التاسع: أن يرى العبد الحجاب ويذوق ألم البعد بارتكاب الذنب، فيبادر إلى إزالة الألم بالإقبال بقلبه إليه وجمعه عليه ولزوم بابه حتى يفتح له -فإنه من لم يلزم الباب لن يدخل أبدا-، فحين يفتح له يجد ما لا يخطر بالبال من النعيم والسرور وتذوق حلاوة الإيمان والذكر وأنواع من الفتوح والمعارف والكنوز الربانية، والتي لا يؤتيها الله إلا لخواصه وأهل قرآنه ومحبته، فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته.

العاشر: أن يرى العبد في ذنبه امتحانا واختبارا له، هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا، فإنه حين المعصية يسلب حلاوة الطاعة والقرب، ويذوق مرارة البعد فيقع في الوحشة، فإن كان ممن يصلح اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة، فحنت وأنَّت وتضرعت واستعانت بربها ليردَّها إلى ما عودها من بره ولطفه، وإن ركنت عنها واستمر إعراضها وجموحها وأبقت ولم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله ، والله أعلم قبل ذلك، ولكن الله لا يؤاخذ العبد بعلمه السابق وإنما بفعل العبد وجرمه.

الحادي عشر: أن يرى العبد تركيبة نفسه من الشهوة والغضب بخلاف الملك، فيرى أن الذنب من موجبات بَشريته وكذلك النسيان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ بني آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"، ولا يتم الابتلاءُ والاختبار إلا بذلك، والله أعلم، فيشهد أنه قد وقع في واحدة من مصايد العدو ومكايده الكثيرة، فيوجب له التيقظ والحذر والحيطة، ويرى مداخله فيسدها مستعينا بالله عز وجل.

الثاني عشر: أن يرى العبد أن عدم رؤية الطاعة ونسيانها وأن يجعل نصب عينيه ذنبه فلا يكاد يفارقه، نعمة عظيمة من عند الله المنان، فإن الله إذا أراد بعبد خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه فيحدث له

توبة بعد توبة مع العمل الصالح حتى يدخل الجنة برحمة الله، وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر إلى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار.

الثالث عشر: أن يرى العبد ذنبه وخطيئته وتقصيره، فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر، فيوجب ذلك أن لا يرى له على الناس فضلاً ولا حقوقاً يذمهم على ترك القيام بها، فإنه يرى نفسه أخس قدراً وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها، أو لها عليهم فضل يستحق الشكر منهم، فاستراح في نفسه وأراح الناس من عتبه، وأيقن أنه من أحسن فقد أحسن لنفسه ومن أساء فعليها.

الرابع عشر: أن يرى العبد أنه من الأفضل له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسى عيبه وغفل عنها أو تغافل، وتفرغ لعيوب الناس، والموفق من أوجب له ذلك الإحسان إلى الناس والاستغفار لإخوانه، فيشهد أن من أُصيب بمثل ما أصيب به يحتاج إلى مثل ما هو محتاج إليه، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم، فيكون دأبه: رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

الخامس عشر: أن يرى العبد سعة رحمة ربه وبره وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه، مع شدة حاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، وهذا يوجب أن يغفر لمن استرعاه الله تعالى عليهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغضي الطرف عن الاستقصاءِ في طلب حقه قبلهم وعن أخطائهم مع القيام بحق الله فيهم، والله أعلم وأحكم.

ومن عيوب النفس الحسد:

ومن عيوبها الْحسد، ومداواتها أَن يعلم أن الْحَسَد عَدو نعْمَة الله، وهو من قلَّة الشَّفَقَة على الْمُسلمين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا".

واعلم أن النفس قد جلبت على حب العلو والرفعة، فهي لا تحب أن يعلوها جنسها، فإذا علا عليها، شق عليها وكرهته، وأحبت زوال ذلك ليقع التساوي على الأكثر، وهذا أمر مركوز في طباع الناس، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاث لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن والحسد، قيل: فما المخرج منهن؟ قال: إذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ.

وعلاج الحسد، تارة بالرضا بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً مما يجده من حسد تجاه غيره، ولا ينطق به، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته، ومع ذلك فعليه أن يدفعه ويجعله من قبيل الوساوس التي يتعوذ بالله تعالى منها، فإن أحب أن يسبق أقرانه في الدين والعلم، ويطلع على ما لم يدركوه مما يرفعه عند الله، فإنه لا يأثم بذلك، إن لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم، بل أحب الارتفاع عنهم ليزيد حظه عند ربه ويرفع درجته ويقترب أكثر من مولاه سبحانه وتعالى، فقد قال الله عز وجل: {وفى ذلك فليتنافس المتنافسون} [المطففين : 26]، وفى الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه في الحق آناء الليل وآناء النهار".

والحسد له أسباب منها: العداوة، والتكبر، والعجب، وحب الرياسة، وخبث النفس،وبخلها، وأشدها : العداوة والبغضاء، فإن من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفه في غرضه، أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك، فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقى أن لا يبغي، وأن يكره ذلك من نفسه.

وأما الكبر، فهو أن يصيب بعض نظرائه مالاً أو منصبا، فيخاف أن يتكبر عليه ولا يطيق تكبره، وأن يرى من أصاب ذلك دونه، فلا يحتمل علوه عليه أو مساواته، وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريباً من ذلك؛ قال الله تعالى: {وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} [الزخرف: 31]، وقال في حق المؤمنين: {أهؤلاء من الله عليهم من بيننا} [الأنعام: 53]، وقال في آية أخرى: {ما أنتم إلا بشر مثلنا} [يس :



15] وقال: {ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون} [المؤمنون: 34]، فعجبوا وأنفوا من أن يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم.

وأما حب الرياسة والجاه، فمثاله أن الرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، إذا غلب عليه حب الثناء، واستفزه الفرح بما يمدح به، من أنه أوحد العصر، وفريد الدهر في فنه، إذا سمع بنظير له في أقصى العالم، ساءه ذلك وأحب موته، أو زوال النعمة التي بها يشاركه في علم، أو شجاعة، أو عبادة، أو صناعة، أو ثروة، أو غير ذلك، وليس ذلك إلا لمحض الرياسة بدعوى الانفراد، وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يؤمنون خوفاً من بطلان رئاستهم.

وأما خبث النفس وشحها على عباد الله، فإنك تجد من الناس من لا يشتغل برئاسة ولا تكبر، وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم عليه به، ساءه ذلك وشق عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم، وتنغيص عيشهم، سره ذلك وفرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره، ويبخل بنعمة الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته.

وقد قال بعض العلماء: البخيل من يبخل بمال نفسه، والشحيح الذي يبخل بمال غيره، فهذا يبخل بنعم الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب إلا خبث النفس ورداءة الطبع، وهذا معالجته شديدة، لأنه ليس له سبب عارض، فيعمل على إزالته، بل سببه خبث الجبلة، فيعسر إزالته.

فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد والشركة فيه، ولا يكون ثمة محاسدة إلا ممن اشتد حرصه على الجاه، فإنه يحسد كل من في العالم ممن يشاركه في الخصلة التي يفاخر بها، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة، فهي واسعة ولا ضيق فيها، فإن من أحب معرفة الله تعالى، وملائكته، وأنبياءه، وملكوت أرضه وسماءه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك، لأن المعرفة لا تضيق على العارفين، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة؛ أو من المفروض أن لا تكون بينهم محاسدة، لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه، وهو بحر واسع لا ضيق فيه، وغرضهم -إن سلم- المترلة عند الله، ولا ضيق فيما عند الله، وأجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه، وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة، ولا يضيق بعض الناظرين على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم، أما إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه والعلو





والرفعة تحاسدوا وتباغضوا وبغى بعضهم على بعض، كما نراه من الكثيرين منهم في هذا العصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

فمن عود نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه، وصار ذلك عنده ألذ من كل نعيم، لأنه لم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق، لأن غيره لو عرف مثل معرفته ونظر مثل نظر وتفكر مثل تفكره لم ينقص ذلك من لذته ولا نظره ولا فكره، وقد عرفت أنه لا حسد إلا في المتوارد على مقصود والشركة فيما يضيق عن الوفاء بالكل، ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء، لأنها واسعة الأقطار، وافيه بجميع الأبصار، فعليك إن كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيماً لا زحمة فيه، ولذة لا تتكدر، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك في المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وضعفت فيها رغبتك، فلست برجل، إنما هذا شأن الرجال، لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك قعد مع الخالفين وبقى من المحرومين.

واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل والجد فيهما، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف أن حقيقة الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في شيء، بل ينتفع به؛ لأنه مظلوم من جهتك، لاسيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك بل بإذن الله، ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد، لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع، فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الآخرة، وأما منفعته في الدنيا، فمن أهم أغراض الخلق غم الأعداء، ولا عذاب أعظم مما أنت فيه من الحسد.

وأما العمل النافع لدفع الحسد من القلب، فهو أن يتكلف من يجده من نفسه نقيض ما يأمر به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود، كلف نفسه المدح له، والثناء عليه، وإن حمله الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الأنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام، وإن احتقره وازدراه لضعف دينه وتجرئه على المعاصي دعا له بالمغفرة وصلاح الدين، وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن شخصاً اغتابهم، أهدوا إليه هدية واستغفروا له مراغمة للشيطان وطلب إغاظة عدو الله تعالى؛ فإنها من أعظم الأعمال الصالحة التي يحبها الله ورسوله.



فالواجب على العاقل مجانبة الحسد على الأحوال كلها، فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده، ثم انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم، والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه، وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد في الأحشاء.

ومن الحسد يتولد الحقد، والحقد أصل الشر، ومن أضمر الشر في قلبه أنبت له نباتا مرا مذاقه، نماؤه الغيظ وثمرته الندم، والحسد هو اسم يقع على إرادة زوال النعم عن غيره وحلولها فيه، فأما من رأى الخير في أخيه وتمنى التوفيق لمثله أو الظفر بحاله وهو غير مريد لزوال ما فيه أخوه فليس هذا بالحسد الذي ذم ونهي عنه، ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عظمت نعمة الله عليه، فكلما أتحفه الله بترداد النعم ازداد الحاسدون له بالمكروه والنقم.

عن حميد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب لا أبالك حيث حسدوا يوسف، ولكن غم الحسد في صدرك؛ فإنه لا يضرك ما لم يعد لسانك وتعمل به يدك.

فالعاقل إذا خطر بباله ضرب من الحسد لأخيه أبلغ المجهود في كتمانه وترك إبداء ما خطر بباله، وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران أو من تقارب الشكل بينهم، ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا إلا وجد فيها من يبغضه عليها أو يحسده فيها، والحاسد خصم معاند لا يجب للعاقل أن يجعله حكما عند نائبة تحدث، فإنه إن حكم لم يحكم إلا عليه، وإن قصد لم يقصد إلا له، وإن حرم لم يحرم إلا حظه، وإن أعطى أعطى غيره، وإن قعد لم يقعد إلا عنه، وإن نهض لم ينهض إلا إليه، وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعم التي عنده.

فبئس الشعار للمرء الحسد، لأنه يورث الكمد، ويورث الحزن، وهو داء لا شفاء له، والحاسد إذا رأى بأخيه نعمة بهت، وإن رأى به عثرة شمت، ودليل ما في قلبه كمين على وجهه مبين، وما وجد حاسد سالم أحدا، والحسد داعية إلى النكد، ألا ترى إبليس حسد آدم فكان حسده نكدا على نفسه، فصار لعينا بعدما كان مكينا، ويسهل على المرء ترضي كل ساخط في الدنيا حتى يرضى إلا الحسود، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة التي حسد من أجلها.

قال بعض الحكماء: ألزم الناس للكآبة أربعة: رجل حديد، ورجل حسود، وخليط للأدباء وهو غير أديب، وحكيم محتقر للأقوام، وأبعد الناس من الدخول في دين الحق والنصيحة لأهله: جاهل ورث الضلالة عن أهله، ورأس أهل ملته حظي فيهم بفضل الضلالة، ومعظم

للدنيا يرى بهجتها دائمة محبوبة ويرى ما رجي من خيرها قريبا وما صرف من شرها بعيدا ليس يعقد قلبه على الإيمان، ورجل خالط النساك فانصرف عنهم لحرصه وشرهه وداجهم على مكر وخديعة.

فهذه أدوية نافعة للحسد جداً، إلا أنها مرة وتحصيلها عسير، وتناولها أعسر، فمن يسرها الله له وسهل له شربها فقد أريد به الخير ويسر لما خلق له، وزاحم أولياء الله فيما يسعهم جميعا، وإلا فليكبر على نفسه أربعا فإنه قد زاحم الشيطان فيما خلق له وبئس المصير.

الإسلام له ضدان: الإشراك والاستكبار، فمن استسلم لله ولغير الله فقد أشرك بالله وجعل له عدلا وندا وشريكا، ومن لم يستسلم بحال فقد استكبر كحال فرعون وغيره، فكل من الشرك والكبر كفر يضاد الإيمان والإسلام، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر"، فقال رجل: يا رسول الله! إني أحب أن يكون قولي حسنا وفعلي حسنا، أذلك من الكبر؟ فقال: "لا، إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس".

وقد قال الله تعالى: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين}، فوصف الله المستكبرين بالتكذيب بآياته والغفلة عنها، لأن الكبر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: بطر الحق وغمط الناس، وبطر الحق جحده ودفعه، وهذا هو التكذيب، وأعظم من ذلك التكذيب بآيات الله، قال تعالى عن قوم فرعون: {وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين}، وقال عن المشركين: {ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله}، وقال: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}.

ولما كان الإنسان حارث همام، لابد له من عمل وحركة وذلك هو حرثه، ولابد له من قصد ونية وإرادة وحب وذلك هو همه؛ فإذا استكبر هذا الإنسان عن أن يكون الله هو مقصوده الذي ينتهي إليه قصده وإرادته، فيسلم وجهه لله؛ ويصرف حياته ومماته لربه، فلابد أن يكون له مقصود آخر ينتهي إليه قصده ويصرف إليه فعله، وذاك هو إلهه الذي أشرك؛ فيكون مشركا، ولهذا كان قوم فرعون الذين وصفهم بالاستكبار والعلو في الأرض وهم الذين استعبدوا بني

إسرائيل، كانوا مع ذلك مشركين بفرعون اتخذوه إلها وربا، كما قال لهم: {ما علمت لكم من إله غيري} ، وقال لهم:{أنا ربكم الأعلى}، وقال: {فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين}، وفرعون نفسه الذي كان هو المستكبر الأعظم على قومه وغيرهم، كان مع هذا مشركا، كما ذكر ذلك تعالى عنه في قوله: {وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك}، وقيل: كان له آلهة يعبدها سرا.

وحتى لو لم يكن المستكبر يعبد غير الله فإنه يعبد نفسه ولا بد، فيكون معجبا بنفسه مختالا فخورا متكبرا، فيشرك بنفسه وإن لم يشرك بغيره، وإبليس هو أول المستكبرين، عبد نفسه، قال تعالى: {إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}.

ومن بطر الحق فجحده اضطره ذلك إلى الإقرار بالباطل، ومن غمط الناس فاحتقرهم وازدراهم بغير حق فإنه يضطر إلى أن يعظم آخرين بالباطل، وهذا من الشرك، فمن غمط الناس جحد حقهم ليعظم نفسه بذلك، وهذا هو الاستكبار والاختيال، فلا بد له ممن يعينه على استكباره واختياله للشرك به، وهو يفرح بمن يحمده ويثني عليه ويعظمه ويواليه، ويشنأ من يذمه ويبغضه ويعيبه ويعاديه، فيكون من أعظم الناس رياء وسمعة، والرياء والسمعة من الشرك، فالمستكبر من أعظم الناس شركا ورياء وسمعة، وإبليس هو الذي يزين كل شرك وكل كبر لبني آدم، وينفخ في أحدهم حتى يتعاظم، ويدعوهم إلى الإشراك بالله ويأمرهم بذلك؛ فقد أقسم على نفسه أن لا يدخل جهنم وحده وأن يقتطع نصيبا من بني آدم ليجاوروه، كما قال تعالى: {ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس}، وهذا من أعظم الشرك بغير الله، وإن كان قد يشرك به أيضا، فهو يجمع الإشراك بالله وبغيره ممن أطاع الخلق وعظمهم، فمن أطاعهم اقتدى بهم، ومن أطاع الرسل اقتدى بهم في توحيدهم وطاعتهم لربهم، ومن عصاهم ضل وغوى، فجميع من عصى الرسل ولم يقتد بهم فهو مشرك، وكل بحسبه، وهذا موجود في جنس العلماء والعباد وأصحاب المناصب وغيرهم، فمن تخيل أنه عظيم أراد ما يليق بذلك الاختيال، ومن أراد العلو في الأرض فلا بد أن يتخيل عظمة نفسه وتصغير غيره، وهنا قد يجعل هذا المختال المستكبر الاختيال وبطر الحق من باب الاعتقادات؛ فيجعل الحق باطلا والباطل حقا فيما يتعلق بتعظيم النفس وعلو قدرها، ويجحد الحق الذي يخالف هواها وعلوها، ويتخيل الباطل الذي يوافق هواها وعلوها، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه أوحي إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد".



وَمن عيوبها رُؤْيَة فَضله على إخوانه:

وَمن عيوبها رُؤْيَة فَضله على إخوانه وأقرانه، ومداواتها الْعلم بِنَفسِهِ وَلَا أعلم بِهِ مِنْهُ، وَحسن الظَّن بأقرانه، ليحمله ذَلِك على احتقار نَفسه ورؤية فضل إخوانه وأقرانه، وَلَا يَصح لَهُ ذَلِك إِلَّا بعد أن ينظر إِلَى الْخلق أَجْمَعِينَ بِعَين الزِّيَادَة وَينظر إِلَى نَفسه بِعَين النُّقْصَان، كَذَلِك قال أَبُو عبد الله السجْزِي: لَك فضل مَا لم تَرَ فضلك فَإِذا رَأَيْت فضلك فَلَا فضل لَك.

قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (1 / 519): (وأما رؤية فضل كل ذي فضل عليك فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤديها، ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقك عليهم، فلا تعاوضهم عليها، فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها، ولا تطالبهم بحقوق نفسك، وتعترف بفضل ذي الفضل منهم، وتنسى فضل نفسك.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقا، ولا يشهد على غيره فضلا، ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب).

داء العجب ودواؤه:

يا من امتحن بالعجب بما تعجب:

(فصل منقول عن ابن حزم رحمه الله تعالى بقليل من التصرف)

من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه؛ فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأَخْلَاق الدنيئة؛ فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أن مصيبته إلى الأبد وأنه لأتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً.

وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل، ولا عيب أشد من هذين، لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الأرض.

فإن أعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تحل بخاطرك، وفي أضاليل الأماني الطائفة بك، فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ.





وإن أعجبت بآرائك فتفكر في سقطاتك، واحفظها ولا تنسها، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك، فأصاب غيرك وأخطأت أنت.

وإن أعجبت بعملك فتفكر في معاصيك وفي تقصيرك، وفي معاشك ووجوهه، فو الله لتجدن من ذلك ما يغلب على خيرك ويعفي على حسناتك، فليطل همك حينئذ وأبدل من الْعُجْب تنقصاً لنفسك.

وإن أعجبت بعلمك فاعلم أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت.

وإن أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك فاجعل مكان الْعُجْب استنقاصاً لنفسك واستقصاراً لها فهو أولى، وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً، فلتهن نفسك عندك حينئذ، وتفكر في إخلالك بعلمك وأنك لا تعمل بما علمت منه فلعلمك عليك حجة حينئذ، ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالماً، واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل منك وأحسن حالاً وأعذر، فليسقط عجبك بالكلية.

ثم لعل علمك الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة فيها كالشعر وما جرى مجراه، فانظر حينئذ إلى من علمه أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة فتهون نفسك عليك.

وإن أعجبت بشجاعتك فتفكر فيمن هو أشجع منك.

وإن أعجبت بجاهك في دنياك فتفكر في مخالفيك وأندادك ونظرائك ولعلهم أخساء وضعفاء سقاط، فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه، ولعلهم ممن يستحيا من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم في أنفسهم وأخلاقهم ومنابتهم، فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرتُ لك.

تفكر فيما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له: يا أمير المؤمنين فلو منعت هذه الشربة بكم كنت ترضى أن تبتاعها؟ فقال له الرشيد: بملكي كله.

قال: يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى أن تفتدي من ذلك؟ قال: بملكي كله.



قال: يا أمير المؤمنين أتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء!

وصدق ابن السماك رحمه الله تعالى.

وإن أعجبت بمالك فهذه أسوأ مراتب الْعُجْب فانظر في كل ساقط خسيس فهو أغنى منك، فلا تغبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت.

واعلم أن عجبك بالمال حمق، لأنه أحجار لا تنتفع بها إلا أن تخرجها عن ملكك بنفقتها في وجهها فقط، والمال أيضاً غاد ورائح وربما زال عنك ورأيته بعينه في يد غيرك، ولعل ذلك يكون في يد عدوك، فالعجب بمثل هذا سخف، والثقة به غرور وضعف.

وإن أعجبت بمدح إخوانك لك ففكر في ذم أعدائك إياك فحينئذ ينجلي عنك الْعُجْب، فإن لم يكن لك عدو فلا خير فيك ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له، فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها؛ عافانا الله.

فإن استحقرت عيوبك ففكر فيها لو ظهرت إلى الناس، وتمثل إطلاعهم عليها، فحينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك إن كانت لك مُسكة من تمييز.

واعلم بأنك إن تعلمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الأَخْلاَق من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس فستقف من ذلك وقوف يقين على أن فضائلك لا خصلة لك فيها، وأنها منح من الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك، وأنك لو وكلت إلى نفسك لعجزت وهلكت، فاجعل بدل عجبك بها شكراً لواهبك إياها، وإشفاقاً من زوالها، فقد تتغير الأَخْلاَق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم.

وارحم من منع ما مُنِحتَ، ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم بالتعصي على واهبها تعالى، وبأن تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أو حقاً، فتقدر أنك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلاً و آجلاً.

وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كل ما ذكرنا، لأن هذا الذي أعجبت به لا فائدة له أصلاً في دنيا ولا آخرة، وانظر هل يدفع عنك جوعة، أو يستر لك عورة، أو ينفعك في آخرتك.

فإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك فما أخلى يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلاً، وما أقل غناهم عنك في الدنيا والآخرة إن لم تكن محسناً! والناس كلهم أولاد آدم الذي خلقه



الله بيده وأسكنه جنته وأسجد له ملائكته، ولكن ما أقل نفعه لهم وفيهم كل معيب وكل فاسق وكل كافر.

وإذا فكر العاقل في أن فضل آبائه لا يقربه من ربه تعالى، ولا يكسبه وجاهة لم يحزها هو بسعيه أو بفضله في نفسه ولا مالاً، فأي معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه! وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره وبفرس لغيره سبق كأن على رأسه لجامه! وكما تقول العامة في أمثالها: كالغبي يزهى بذكاء أبيه.

فإن تعدى بك الْعُجْب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك، لأنه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من الْعُجْب، هذا إن امتدحت بحق فكيف إن امتدحت بالكذب!.

وإن أعجبت بقوة جسمك فتفكر في أن البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال، وإن أعجبت بخفتك فاعلم أن الكلب والأرنب يفوقانك في هذا الباب، فمن الْعُجْب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير ناطق.

واعلم أن من قدر في نفسه عجباً أو ظن لها على سائر الناس فضلاً فلينظر إلى صبره عندما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمل أو مصيبة، فإن رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذومين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز، وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشيء يسبق فيه على ما ذكرنا، بل هو إما متأخر عنهم في ذلك أو مساوٍ لهم ولا مزيد.

واعلم أن التعسف وسوء الملكة لمن خولك الله تعالى أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل، لأن العاقل الرفيع النفس العالي الهمة إنما يغلب أكفاءه في القوة ونظراءه في المنعة، وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق وعجز ومهانة.

ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ أو بقتل برغوث،أو بفرك قملة، و حسبك بهذا ضعة و خساسة.

قد يكون الْعُجْب لفضيلة في المعجب ظاهرة؛ فمن معجب بعلمه فيكفهر ويتعالى على الناس، ومن معجب بعمله فيرتفع، ومن معجب برأيه فيزهو على غيره، ومن معجب بنسبه فيتيه، ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر ويتوخى.





وأقل مراتب الْعُجْب أن تراه يتوفر عن الضحك في مواضع الضحك، وعن خفة الحركات، وعن الكلام إلا فيما لا بد له من أمور دنياه، وعيب هذا أقل من عيب غيره، ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلاً وموجباً لحمده، ولكن إنما يفعل ذلك احتقاراً للناس وإعجاباً بنفسه فحصل له بذلك استحقاق الذم.

وإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، حتى إذا زاد الأمر و لم يكن هناك تمييز يحجب عن توفية الْعُجْب حقه ولا عقل جيد حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام وفي المعاملة، حتى إذا زاد ذلك وضعف التمييز والعقل ترقى ذلك إلى الاستطالة على الناس بالأذى بالأيدي والتحكم والظلم والطغيان واقتضاء الطاعة لنفسه والخضوع لها إن أمكنه ذلك، فإن لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه واقتصر على ذم الناس و الاستهزاء بهم.

وقد يكون الْعُجْب لغير معنى ولغير فضيلة في المعجب، وهذا من عجيب ما يقع في هذا الباب، وكثيراً ما نراه في النساء، وفيمن عقله قريب من عقولهن من الرجال.

وهو عجب من ليس فيه خصلة أصلاً؛ لا علم ولا شجاعة ولا علو حال ولا نسب رفيع ولا مال يطغيه وهو يعلم مع ذلك أنه صفر من ذلك كله، لأن هذه الأمور لا يغلط فيها من يقذف بالحجارة، وإنما يغلط فيها من له أدنى حظ منها.

وهذا مكان فيه للكلام شعب عجيب ومعارضة معترضة، وهو أنه ليس شيء من الفضائل كلما كان المرء منه أعرى قوي ظنه في أنه قد استولى عليه واستمر يقينه في أنه قد كمل فيه إلا العقل والتمييز، حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح؛ والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء؛ والصبيان الصغار يتهكمون بالكهول؛ والسفهاء العيارون يستخفون بالعقلاء المتصاونين؛ وضعفة النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم.

وبالجملة فكلما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلاً وأكمل تمييزاً.

ولا يعرض هذا في سائر الفضائل، فإن العاري منها جملة يدري أنه عارٍ منها، وإنما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها وإن قل، فإنه يتوهم حينئذ إن كان ضعيف التمييز أنه عالي الدرجة فيه.



ودواء من ذكرنا الفقر والخمول، فلا دواء لهم أنجع منه، وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جداً، فلا تجدهم إلا عيابين للناس وقاعين في الأعراض مستهزئين بالجميع مجانبين للحقائق مكبين على الفضول.

وربما كانوا مع ذلك متعرضين للمشاتمة والمهارشة، وربما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم.

وقد يكون الْعُجْب كميناً في المرء، حتى إذا حصل على أدنى مال أو جاه ظهر ذلك عليه، وعجز عقله عن قمعه وستره.

عافانا الله وإياكم، والحمد لله رب العالمين.



حكمة سلفية بالغة:

من عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز، من قلة الصدق كثرة الخلطاء ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس، وما ملكها عبد إلا عز وما ملكت عبدا إلا ذل.

أحسن الأشياء خمسة: البكاء على الذنوب، وإصلاح العيوب، وطاعة علام الغيوب، وجلاء الرين من القلوب، وأن لا يكون لكل ما يهوى ركوب.

آه من نفس ما يقر قرارها، طلعت شمس الشيب وما خبت نارها، ما لاحت لها شهوة إلا قل اصطبارها، ما بانت لها موعظة فبان اعتبارها، كم وعظها ليلها ونهرها نهارها، الذنب لباسها والجهل شعارها، كم نكثر النصائح وما تقل أوزارها، كم تقوم وما يصلح ازورارها، كلما جذبها أملها زاد اغترارها، إلى كم مع المعاصي أما يلزمها عارها، أساء تدبيرها أم قبح اختيارها، من يأخذ بيدها إذا طال عثارها.

إن النفس إذا أطمعت طمعت، وإذا أقنعت باليسير قنعت، فإذا أردت صلاح مرضها فبترك غرضها، احبس لسانها عن فضول كلماتها، وغض طرفها عن محرم نظراتها، وكف كفها عن مؤذي شهواتها، إن شئت أن تسعى لها في نجاتها.

أجلد الناس من ملك غضبه، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله، ومن حاسب نفسه استحيا الله من حسابه، ولن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه، واحذر أن تكون ثناء منشورا وعيبا مستورا.

ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان: من إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه.

إنما جمل كلام السلف في مذاق الأسماع وعظمت فيه البركة وحسن به الانتفاع، لأنهم كانوا به عاملين وفي نشره مخلصين، اللهم فعمنا ببركة أعمالهم الصالحة وانفعنا بمقاصدهم الصادقة، فهم القوم لا يضل من اهتدى بهداهم ولا يضيع من تمسك بعراهم، ولا يشقى من اقتدى بهم وسار على خطاهم.





تطالبني النفس بالمشتهى وتنسى القيامة والمنتهى
وتسعى إحكام عهد الهوى وعقد دياناها قد هوى
وتترك صحبة أهل النهى وتصحب من قد سها أو لها
فإن دام هذا التنادي بها فويل لها ثم ويل لها

من ألزم نفسه بآداب السنة عمر الله قلبه بنور المعرفة، أقرب شيء إلى مقت الله رؤية النفس أحوالها، من استولت عليه النفس صار أسيرا في سجن الشهوات محصورا في حكم الهوى فحرم الله على قلبه الفوائد، الحر عبد ما طمع والعبد حر ما قنع.

ينبغي على العازم على الدخول في أولياء الله أن يكون شحيحا ضعيفا قويا مطيعا عصيا؛ يطيع داعي الله في العبادة والتقى ويعصي داعي النفس إلى اتباع الهوى، ويقوى على مجاهدة النفس والشيطان ويضعف عن متابعة هواه في ركوب المعاصي، ويشح بدينه وعرضه وحسناته ويسخو بترك الدنيا الشاغلة عن طاعة الله وطلب مرضاته.

ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار، لو صرت مجاهدا وقت مطالبة النفس ومحاربة الشيطان لرأيت من نصر الله العجب، ولكنك انقلبت يوم الفرار إلى حياة الخزي والعار، فبئست الحياة وبئس المنقلب، ربحت الخزف والحجر وخسرت الجوهر والذهب.

من لم يعتز بطاعة الله لم يزل ذليلا، ومن لم يستشف بكتاب الله لم يزل عليلا، ومن لم يستغن بالافتقار إلى الله فهو الدهر فقيرا، ومن لم يتحقق بالعبودية لله فهو لكل شيء عبد، وفي قبضة الله كل أسير، ومن لم يتترس بالتوكل على الله أصابه كل رام، ومن لم يحتم بحماية الله لم يحمه سواه حام.

جفني القريح عليكم واقع دامي والماء من سحب عيني هامع هامي
ومذ هجرتم وكنتم عزي السامي غشاني الذل من خلفي وقدامي
هذا جزاء من دعي إلى العزيز الغفار فما أجاب الداعي وندب إلى السعي في فكاك رقبته من أسر النفس والشيطان فقصرت به المساعي.





قد ثبت في الحكمة أن شفاء الأمراض قصد أسبابها، فمن استشفى لمرضه بغير ذلك فقد أتى البيوت من غير أبوابها، فمن كان داؤه المعصية فشفاؤه الطاعة، ومن كان داؤه الغفلة فشفاؤه اليقظة، ومن كان داؤه كثرة الاشتغال فشفاؤه في تفريغ البال.

من تفرغ من هموم الدنيا قلبه قل تعبه، وتوفر من العبادة نصيبه، واتصل إلى الله مسيره، وارتفع في الجنة مصيره، وتمكن من الذكر والفكر والورع والزهد والاحتراس من غوائل النفس ووساوس الشيطان.

ومن كثر في الدنيا شغله اسود قلبه، واظلم طريقه، وكثر همه، ونصب بدنه، وصار مهون الوقت، طائش العقل، معقود اللسان عن الذكر، مقيد الجوارح عن الطاعة، من قلبه في كل واد شعب، ومن عمره لكل شغل حصة، فاستعذ بالله من فضول الأعمال والهموم، فكل ما شغل العبد عن الرب فهو مشئوم، ومن فاته القرب من مولاه فهو لو جازت يداه نعيم الخلد محروم.

كل العافية في الذكر والطاعة، وكل البلاء في الغفلة والمخالفة، وكل الشفاء في الإنابة والتوبة، متى أردت أن تعلم أي الدارين أولى بك فانظر أي الحالين اغلب عليك، فإذا أصحاب الطاعة الجنة أولى بهم، وأصحاب المعصية النار أولى بهم، ولا تخادع نفسك في صحة النظر، فجهل الإنسان بنفسه أضر الضرر، وأعظم الخطر.

وانظر بعين التفكير والاعتبار لو أن طبيبا نصرانيا عفاك عن شرب الماء البارد لأجل مرض من أمراض الجسد لاطعته في ترك ما نهاك عنه، وأنت تعلم أن الطبيب قد يصدق وقد يكذب، ويصيب ويخطئ، وينصح ويغش، فما بالك لا تترك ما نهاك عنه انصح الناصحين وأصدق القائلين لأجل مرض القلب الذي إذا لم تشف منه فأنت من اهلك الهالكين.

لا تقدر على التخلص من بلوى المعصية إلا بالتخلص من سجن الغفلة، ولا تتخلص من الغفلة إلا بتجويع البطن وتفريغ القلب ومواصلة الذكر، فجوع بطنك وارفض شغلك واذكر ربك يعتزلك شيطانك، إن الشيطان حامل على العصيان، والعصيان جنون، ومن لم يحضره الشيطان فليس بمجنون.





طوبى لمن كان كلامه مناجاة الله، وعمله معاملة مع الله، وفكره في تدبر آيات الله والاعتبار بصنع الله، ونيته خالصة لوجه الله، يزاحم العلماء بركبتيه، ويقبض على العلم بكلتى يديه، عباداته مؤسسة على القواعد وعلى تصحيح العقائد.

ألا رب من قد انحل الزهد جسمه كثير صلاة دائم الصوم عابد
يروم وصالا وهو بالطرق جاهل إذا جهل المقصود قد خاب قاصد
قليل من الأعمال بالعلم نافع كثير من الأعمال بالجهل فاسد.





الخاتمة:

جاء فِي هذه الْفُصُول بعض معايب النَّفس يسترشد بهَا الْعَاقِل على مَا وَرَاءهَا، وَينجو مِنْهَا من يُؤَيّدهُ الله بتَوْفِيق وتسديد، ومعايب النفس لَا يُمكن استيفاءها، وَكَيف وَالنَّفس معيوبة بِجَمِيع أوصافها، وَكَيف يُمكن إحصاء عيب مَا كلهَا عيب، وَقد وصفهَا الله تَعَالَى بِأَنَّهَا الأمارة بالسوء، إِلَّا أَنه رُبمَا يصلح العَبْد من عيوبها شَيْئا بِبَعْض هَذِه المداواة فَيسْقط مِنْهُ من عيوبها ما شاء الله تعالى أن يسقط، ومن شاء الله له السلامة.

ثم إنه ليس في وسع العبد إحصاء جميع عيوب النفس، فإنه كلما أحصى عيبا ظهر له عيب آخر، فليس من الفطنة الاشتغال بالتفتيش عن عيوب النفس وإحصائها وإن كان المراد قطعها، وإنما الكيس من سافر إلى الله على سفينة القرآن والسنة نحو هدفه المنشود ومنزله المنتظر، لا يثنيه عليه شيء ولا يعوقه عنه عائق، وعالج كل عيب ظهر في حينه، وهذه درة ألمح إليها شيخ الإسلام ابن تيمية وكذا ابن القيم رحمهما الله تعالى؛ حيث قال ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2 / 299): (... وَسَأَلْتُ يَوْمًا شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَةَ – رَحِمَهُ اللَّهُ – عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَقَطْعِ الْآفَاتِ، وَالِاشْتِغَالِ بِتَنْقِيَةِ الطَّرِيقِ وَتَنْظِيفِهَا؟

فَقَالَ لِي جُمْلَةَ كَلَامِهِ: النَّفْسُ مِثْلُ الْبَاطُوسِ – وَهُوَ جُبُّ الْقَذَرِ – كُلَّمَا نَبَشْتَهُ ظَهَرَ وَخَرَجَ، وَلَكِنْ إِنْ أَمْكَنَكَ أَنْ تَسْقُفَ عَلَيْهِ، وَتَعْبُرَهُ وَتَجُوزَهُ، فَافْعَلْ، وَلَا تَشْتَغِلْ بِنَبْشِهِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَصِلَ إِلَى قَرَارِهِ، وَكُلَّمَا نَبَشْتَ شَيْئًا ظَهَرَ غَيْرُهُ.

فَقُلْتُ: سَأَلْتُ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَعْضَ الشُّيُوخِ؟ فَقَالَ لِي: مِثَالُ آفَاتِ النَّفْسِ مِثَالُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ الَّتِي فِي طَرِيقِ الْمُسَافِرِ، فَإِنْ أَقْبَلَ عَلَى تَفْتِيشِ الطَّرِيقِ عَنْهَا، وَالِاشْتِغَالِ بِقَتْلِهَا: انْقَطَعَ، وَلَمْ يُمْكِنْهُ السَّفَرُ قَطُّ، وَلَكِنْ لِتَكُنْ هِمَّتُكَ الْمَسِيرَ، وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا، وَعَدَمَ الِالْتِفَاتِ إِلَيْهَا، فَإِذَا عَرَضَ لَكَ فِيهَا مَا يَعُوقُكَ عَنِ الْمَسِيرِ فَاقْتُلْهُ، ثُمَّ امْضِ عَلَى سَيْرِكَ.

فَاسْتَحْسَنَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ذَلِكَ جِدًّا، وَأَثْنَى عَلَى قَائِلِهِ).

ثم إن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، فهي مهمتهم في هذه الدنيا، وقد جعلها الله تعالى على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا، وإرشادا، ونصحا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ





فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: 2]، وَقَالَ تَعَالَى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: 151-152].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

ذلك أن تزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل كما يفعل كثير من الصوفية؛ فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب وخبرته؟ فالرسل أطباء القلوب، وشهاداتهم وحي الله إليهم، وقد أوقف الله تعالى الشفاء على متابعتهم، وهو سبحانه باريها على هذا الخلق العجيب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان.

وحقيق بكل واحد منا التمثل بأبيات شيخ الإسلام:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات

وليس لي دونه مولى يدبرني ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتي

إلا بإذن من الرحمن خالقنا ... إلى الشفيع كما قد جاء في الآيات

ولست أملك شيئا دونه أبدا ... ولا شريك أنا في بعض ذرات

ولا ظهير له كي يستعين به ... كما يكون لأرباب الولايات

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي

فمن بغى مطلبا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتي

والحمد لله ملء الكون أجمعه ... ما كان منه وما من بعد قد ياتي





فمن نظر إلى نفسه بمنظار الكتاب والسنة في ساحة العدل والإنصاف مع نفسه قبل غيره عرف أنها جاهلة ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، فلا يفرح بها ولا يسكن إليها، ومن وصفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها.

فحقيق بمن هذا شأنه أن يلجأ إلى من يلجأ إليه كل شيء ولا يلجأ هو إلى شيء؛ فيفر إلى خالقها وفاطرها، ويرغب إليه أن يقيها شرها ويداوي عيوبها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وكله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وكل إلى نفسه، وهكذا علمنا النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لحصين بن المنذر «قل: اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي»، وفي خطبة الحاجة: «الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا» وقد قال تعالى: {ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: 9] وقال تعالى: {إن النفس لأمارة بالسوء} [يوسف: 53] .

فمن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه علم أنها منبع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضل من الله من به عليها، لم يكن منها ولا بشطارتها، كما قال تعالى: {ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا} [النور: 21]، وقال تعالى: {ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون} [الحجرات: 7]، فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي من بهما، فجعل العبد بسببهما من الراشدين، {فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم} [الحجرات: 8]؛ عليم بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده، حكيم فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

أف ثم أف لنفس وقد خاضت في الدنيا والدين، وبلغت ما بلغت فيهما، وما عبق بها فضيلة ولا شرفت بما شرف به الأنبياء والصالحون من حسن الدين والخلق؛ إن نوظرت شمخت، وإن نوصحت تعجرفت، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم وسقطت عليها سقوط





الغراب على الجيف، فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة، توفر في المخالطة عيوبًا تبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها، وإن انكسر لها غرض تضجرت، وإن أمدت بالنعم اشتغلت عن المنعم!!

أف لها اليوم على وجه الأرض، وغدًا تحتها! والله إن نتن جسدها بعد ثلاث تحت التراب أقل من نتن خلائقها وهي بين الأصحاب! والله قد بهرها حلم هذا الكريم عنها، وغرها بالله ما غرها، كيف يسترها وهي تتهتك، ويجمعها وهي تتشتت؟! وغدًا يقال: مات الحبر العالم الصالح والدكتور البارع والمفكر الكبير والزاهد الورع، ولو عرفوه حق معرفته بنفسه، ما دفنوه.

والله إني على يقين أن كل من عرف نفسه وكرمت عليه؛ لأشفق عليها مما هي صائرة إليه من جريانها وراء مشتهياتها ورغباتها؛ وإن حلت؛ ونادى عليها نداء المكشفين معايب الأعداء، ولناح نوح الثاكلين للأبناء، إذ لا نائح له ينوح عليه لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة، التي قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها، ووالله ما يجد لها العاقل خلة يستحسن أن يقول متوسلًا بها: اللهم! اغفر لي كذا بكذا.

والله، ما التفت إلى الله تعالى كيس قط إلا وجد منه سبحانه برًّا يكفيه، ووقاية تحميه من تسلط الأعداء؛ وأولهم نفسه، ولا عرضت حاجة فمد يديه إليه إلا قضاها أكرم الأكرمين، هذا فعله سبحانه مع عبده، وهو رب غني عنه، وهذا فعل العبد وهو عبد فقير إليه!! ولا عذر له فيقول: ما دريت، أو: سهوت.

ووالله، لقد خلق عبده خلقًا صحيحًا سليمًا، وأحسن تقويمه، ونور قلبه بالفطنة، حتى إن الغائبات والمكنونات لتنكشف لفهمه، وأخضع له سائر خلقه وجعلهم في خدمته، فوا حسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضا! وا حرمانه لمقامات الرجال والفطناء! ويا حسرته على ما فرط في جنب الله، ويا شماتة الأعداء به! وا خيبة من أحسن الظن به إذا شهدت الجوارح عليه! وا خذلانه عند إقامة الحجة عليه! سخر -والله- منه الشيطان، وهو الدكتور الفطن؛ المفكر العبقري؛ العالم الحبر الفاهم؛ العابد الزاهد؛ المنفق الكريم؛ المجاهد الشجاع، أول من تسعر بهم جهنم؛ فهنيئا له بها وبئس المصير!!.





اللهم، توبة خالصة من هذه الأقذار، ونهضة صادقة لتصفية ما بقي من الأكدار، أبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم؛ فوالله ما عصيتك جاهلًا بمقدار نعمك، ولا ناسيًا لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي؛ إنه لا يغفر إلا أنت.

وَالله تَعَالَى أسأل أن يجعلنا موضع منه وفضله، وأن يوفقنا لمتابعة الرُّسُل، ويحلينا بالتوحيد، ويزيل عَنَّا موارد الْغَفْلَة والشهوات، ويصرف عنا كل عالق وعائق، ويجعلنا فِي كنفه وعلى مِلَّته وعصمته وتحت رعايته ولوائه؛ فَإِنَّهُ ولي ذلك والْقَادِر عليه والوهاب لَهُ، وإِنَّه أرْحم الرَّاحِمِينَ، وهو حسبنا ونعم الوكيل؛ يا كريم يا ودود لا إله إلا أنت.

والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

تم بحمد الله وفضله يوم: الخميس، 14 شعبان، 1435

فتحي عيساوي

E-mail : ffethi73@gmail.com

